رسائل الأم تايسية

إلى راهبة مبتدئة

ترجمة

دير راهبات السيدة ـ بلمّانا

5.590

رسائل
الأم الرئيسة تايسية

رسائل

الأم الرئيسة تايسيّة

ترجمة

دير راهبات السيدة - بلمّانا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إسم الكتاب : رسائل الأم الرئيسة تايسية
ترجمة : دير راهبات السيدة - بلمانا
المطبعة : ألف باء - الأديب - دمشق
الطبعة : الأولى ٢٠٠٠/ ٦/ ٢٠٠٤

الفهرس

مقدمة ٧
الرسالة الأولى: عند مجيئك إلى الدير ٩
الرسالة الثانية: بزوغ الرهبنة والحياة المشتركة ١٥
الرسالة الثالثة: حول الخضوع للرؤساء ٢٥
الرسالة الرابعة: حول الطاعة ٣١
الرسالة الخامسة: حول أجر المحبة ٤١
الرسالة السادسة: واجبات المرتّلات ٤٩
الرسالة السابعة: حول المبالغة في اللباس والزينة لدى المتوحّدات ٥٩
الرسالة الثامنة: حول الاهتمامات الزائدة وغير اللائقة بالروح الرهبانية ٦٩
الرسالة التاسعة: حول كثرة الكلام والثرثرة ٧٧
الرسالة العاشرة: حول الأحزان التي لابدَّ منها في الحياة الرهبانية وحول الاختيار الإرادي لحياة الأحزان ٨٥
الرسالة الحادية عشرة: حول الأمراض ومعالجتها ٩٣

الرسالة الثانية عشرة: حول الصلاة ٩٧

الرسالة الثالثة عشرة: حول الصلاة الداخلية الذهنية التي تتمّ في القلب سرّياً ١٠٧

الرسالة الرابعة عشرة: حول السيامة الرهبانية والإسكيم الكبير ١١٧

السيامة الرهبانية ١٢٧

γ γ γ

مقدمة

كانت الرئيسة الأم تايسيَّة تدعى في العالم ماريا سالوبيفا، وهي تنحدر من عائلة الشاعر العظيم ألكسندر بوسكين. ولدت عام ١٨٤٠ في روسيا، وتعلّمت في مدرسة البنات للعائلات الأرستقراطية. بعد إنـــهاء دراستها بسنة واحدة، بدأت حياتـــها الرهبانية في دير " دخول السيدة". وبعد قضاء سنة كمبتدئة فيه، ارتدت الثوب الرهباني. أخذت الإسكيم الصغير عام ١٨٧٠ حيث دعيت أركاذيّا . انتقلت إلى دير آخر عام ١٨٧٢، ثم انتقلت أيضاً إلى دير ثالث عام ١٨٧٨ حيث أخذت بعد سنة اسم تايسيّة

في عام ١٨٨١، عُيِّنت من قِبَل المطران إيسيذوروس رئيسة على دير القديس يوحنا المعمدان، وكانت الأخوية وقتئذٍ تعاني من مشاكل كبيرة، ولكن بتأثيرها وإرشاداتـــها استقامت الحياة في الدير، وبقيت رئيسة عليه إلى أن توفيت في الثاني من كانون الثاني عام ١٩١٥، يوم عيد رقاد القديس سيرافيم ساروفسكي. دُفن جسدها في مقبرة الدير، في المكان الذي تـــهدَّم الآن بسبب فيضان مياه النهر، وهكذا فإن ضريحها اليوم موجود في أعماق النهر

كانت الأم تايسيّة ابنة روحية أولاً للأرشمندريت لافرنديوس، وبعد ذلك للقديس العظيم يوحنا كرونستادت. وهي تُعتبر من أشهر الراهبات في بداية قرننا الحالي، ومعروفة في معظم مناطق روسيا. ولقد ساعدت خلال فترة رئاستها التي استغرقت ثلاثين عاماً، في تأسيس الكثير من الأديرة النسائية الجديدة في روسيا الشمالية. ومن الجدير بالذكر، أن المجمع الروسي وبطريرك روسيا، قد قدَّما لها صليباً مذهَّباً، تقديراً لمنجزاتها التي قامت بها من أجل الرهبنة الروسية بشكل خاص والكنيسة بشكل عام. وكانت الأم تايسيّة مربّية عظيمة أيضاً وكاتبة موهوبة، ولها كتابات عديدة، ولقد جُمع بعضٌ منها، بعد ترجمتها إلى اليونانية، في كتاب تحت عنوان "رسائل الرئيسة تايسيّة"

الرسالة الأولى

عند مجيئك إلى الدير

لأن المدعوين كثيرون والمختارين قليلون

(متى٢٢:١٤)

تكتبين لي: "أخيراً لقد عزَّاني الرب، لأن أهلي قد منحوني بركتهم لدخول الدير. أنا فرحة بكلّيتي، و أشكر الله إذ حقق لي هذه الرغبة التي طالما غذّيتها"

نعم، في الحقيقة إن هذا الحدث يبعث الفرح! وأنا أيضاً أفرح وأقدّم معك الشكر للرب الذي "يُشبِع بالخيرات مشتهياتك فيتجدد مثل النسر شبابك" (مز١٠٢:٥)، "لأن المدعوين كثيرون والمختارين قليلون" (متى٢٢:١٤) كما يقول الرب. و"طوبى للذين اخترتهم وقبلتهم" (مز٦٤:٥)، أي الذين يختارهم الرب من بين جماعة الناس، ويدعوهم لخدمته هو فقط

يقول القديس ثيوذوروس الستوذيتي،وهو أحد الآباء الملهمين من الله، إنه عندما خلق الله الإنسان، جعله في الفردوس ملكاً

ومتسلّطاً على جميع الخلائق الأخرى. هكذا يأخذ الله الرهبان من بين سائر الناس ويجعلهم أمامه لكي يقوموا بخدمته. والله لا يختار الرهبان كونهم يستحقّون هذا الإكرام، وإنما فقط من أجل تحننه الفائق وحكمته، فهو يحدّد لكلٍّ واحدٍ الطريق الذي يسلكه ويدلّه عليه بالضبط من أجل خلاصه

يقول الرسول : "إن الربَّ يعرف الذين له" (٢تيمو٢٠:١٩)، ويقول الرب نفسه : "أنا أعلم الذين اخترتهم" (يو١٣:١٨)، فلا تخطر في ذهنكِ الفكرة الباطلة الخدّاعة، أنك قد فعلت شيئاً هاماً، بتركك العالم ودخولكِ الدير. تذكّري كلام الرب :"ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم" (يو١٥:١٦)، وما هو الصلاح الذي يمكننا أن نفعله بقوانا الخاصة، نحن الخطأة الضعفاء، المرتكبين كل إثم!... فنحن لا نستحق "أن نفتكر شيئاً كأنه من أنفسنا" (٢كو٣:٥) كما يقول الرسول، أي ليس فقط أنه لا يمكننا أن نحقق شيئاً صالحاً، بل لا يمكننا أيضاً أن نحدِّد أسلوب حياتنا ولا بأية طريقة. إذاً بما أننا نشعر ونحيا في ذواتنا، المراحم العظمى لعناية الله الفائق الصلاح، فلنشكر الرب بقلبٍ منسحق ونصرخ إليه قائلين : "الرب رحيمٌ ورؤوف طويل الأناة وكثير الرحمة لا يسخط على الدوام ولا يحقد إلى الأبد لا حسب آثامنا عاملنا ولا حسب خطايانا جازانا" (مز١٠٢:٨-١٠). ولنقدم له الشكر، ليس بالكلام فقط،

ولكن على الأخص بمحاولتنا أن نظهر اعترافنا بالجميل له عملياً

جاهدي لكي تصير كلُّ حياتكِ شهادةً لمحبتك الصادقة نحو الرب وطاعتك لمشيئته، وإلا ستكونين مثل الإبن العاصي الوارد ذكره في الإنجيل (مت٢١: ٢٨-٣٠)، الذي رغم أنه قَبِلَ دعوة أبيه ظاهرياً، وأجابه بالتأييد عندما طلب منه العمل في الحقل، إلا أنه في النهاية لم يذهب، وبالتالي لم يفعل مشيئة مَنْ دعاه

فليعطكِ الله القوة لكي تبدأي بداية حسنة، وتَظهري غالبة في حربكِ ضدَّ التجارب الجسدية، وضدَّ روح العالم، وضدَّ الشيطان نفسه، لأنه "كأسد زائرٍ يجول مُلتمساً مَنْ يبتلِعُهُ هو" (١بط٥:٨) بأية طريقة كانت. وهو، يحقّق مأربه بأفضل ما يمكن، يُظهر أمامنا جميع فخاخِهِ القوية وأساليبه الخدَّاعة الكاذبة، حتى إذا ما اكتشف الأهواء التي يضعف أمامها كلٌّ منّا ويميل إليها، يستطيع اصطياده بواسطة تلك الأهواء، كما يصطاد العنكبوت الحشرات العديمة الخبرة في شبكته. فلينر الربُّ عينيك العقليتين لكي تنتبهي إلى فخاخ العدو تلك، وليمنحك حكمةً وفهماً

أعتقد أنه من غير المناسب حالياً أن نتكلّم بتوسّع حول هذا الموضوع، إنك مبتدئة و لم تدخلي بعد جيداً في طريق الحياة المرضية للرب، فكلُّ شيءٍ جديد ومجهول بالنسبة إليك، بما فيه مجتمع

الراهبات الذي ستصيرين عضواً فيه. في هذه اللحظة أستطيع أن أقول لك قولاً واحداً فقط، ولكنه مهم جداً، وهو أنّ كلّ نجاحك وسلامك الداخلي يتوقف على مقدار ما تطبقينه بصدقٍ لأنه هذا هو الشرط الأول للخلاص: حاولي أن تحبي جميع الناس. وهذه الوصية ليس من الصعب تطبيقها، بل هي ملائمة لطبيعتنا، وفضلاً عن ذلك، فإن تطبيقها يمنح عذوبةً ولذّةً تملأ قلب مَنْ يحبُّ الغريب بسلامٍ فائق. كما يقول في إنجيل (متى ١٩:١٩): "أَحِبَّ قريبَكَ كنفسِكَ". ومواقف حياتك نفسها سوف تساعدك في تطبيق هذه الوصية وغيرها من الفضائل، مثل التواضع والمسامحة وعدم حفظ الإساءة وطول الأناة

عليكِ أن تقدّمي للقريب كلّ خدمة، حتى لو دفعكِ ذلك إلى التضحية بالذات. إذا نظرتِ إلى الإنسان الذي يعيش معك وكأنه قريب منك وليس بعيد عنك، مثل أخ لكِ، قد حصل هو أيضاً على الفداء بدم الإله المتجسّد وعلى البنوّة لله، وكان قلبك يتّقد قليلاً بمحبة الله، فإنك بالتأكيد سوف تحبينه لأن "من يحبُّ الله يحبُّ أخاهُ أيضاً" (١يو٤:٢١)

إذا تذكرت كلمات الرب يسوع: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" (متى ٢٥:٤٠)، عندئذٍ لن تحرمي

قريبك من شيءٍ سوى من حفظ الإساءة (الحقد)، لن تحرميه من المساعدة المادية ولا الروحية. إذا انتبهت باستمرار إلى أخطائك الشخصية وهفواتك، عندئذٍ لن تتكلمي على أحدٍ بالسوء على الإطلاق، لأنك لن تشاهدي أخطاء الآخرين، كون انتباهك موجّه إلى أخطائك. بل حتى لو رأيتِ أختاً لك تخطئ، فعليك أن تفكري بأنـــها من الممكن أن تتوب مباشرة وتصطلح وتكفّر عن إثمها "لأنّ الله قادر أن يثبتهُ" (رو١٤:٤). بينما أنت التي تدينين قد تخطئين مرات عديدة خطايـــا أسوأ ولا تعرفين إن كانت ستعطى لك الفرصة لكي تكفّري عنها أم لا

إذاً، عليكِ أن تصوني نفسك من الإدانة، وأن تكوني خادمةً للجميع، وأن تعتبري نفسك أسوأ من الجميع، وأن تكون في قلبك محبة للجميع، تعبّرين عنها بالعمل، وعندئذٍ ستشعرين بالسلام وتخلُصين

هاهي نصيحتي الأولى، التي تستقبلك بطريقة مـــا عند أبواب الحياة الرهبانية! إبدأي من المحبة التي هي أسمى من جميع الرياضات النسكية الخارجية، وأسمى من "جميع المحرقات والذبائح" (مر١٢:٣٣). إن الرسول بولس، عندما يعدّد جميع الفضائل المسيحية، ومن بينها الشهادة في سبيل الإيمان بالمسيح، ينتهي إلى أنه

لا يوجد ربحٌ من دون المحبة ، ويصير الكلُّ كلا شيءٍ "ولكن ليس لي محبَّةٌ فلا أنتفعُ شيئاً" (١كو١٣:٢-٣). ولا تنسي أبداً هذه الحقيقة المقدَّسة، لأنه إذا لم تجعليها حياةً لكِ فمن المستحيل أن تخلصي، وستذهب جميع محاولاتك وجهاداتك الرهبانية سدىً

الرسالة الثانية

بزوغ الرهبنة والحياة المشتركة

مُلكُ الأرض في يد الربِّ فهو يقيم عليها في الوقت المناسب مَن به نفعُها
(حكمة سيراخ ١٠:٤)

أيتها الأخت الحبيبة، قبل أن نبدأ بفحص الحياة الرهبانية بتدقيق، صمَّمتُ أن أقدّم لك، ولو بطريقة مختصرة، فكرة عن بزوغ الرهبنة وأشكالها المختلفة، وكذلك عن ماهية الحياة الرهبانية ضمن الشركة، وعن بداياتـــها، والقوانين التي تحدِّدها

لن أستخدم كلماتي وأفكاري، بل سأُظهر لك شهادات الآباء القديسين ومعلمي الكنيسة، كما هي واردة بأسلوبٍ جميل ومفصَّل في كتاب "تاريخ الرهبنة الأرثوذكسية الشرقية" (الأب كاتانسكي، أستاذ في أكاديمية موسكو)

يؤكِّد جميع الآباء القديسين أنَّ الرهبنة ابتدأت منذ عصر الرسل، بل وقبل ذلك، منذ أيام ربنا يسوع المسيح على الأرض. يقول القديس باسيليوس الكبير، إن الحياة في الشركة الرهبانية هي في

الحقيقة تقليدٌ لطريقة حياة ربنا يسوع المسيح وتلاميذه. أي أنه كما كان يسوع المسيح يجمع حوله مصفَّ الرسل ويعيش معهم حياة متميزة، هكذا الرهبان أيضاً يقلّدون تلك الحياة، بعيشهم في مجتمعات صغيرة متميزة تحت طاعة الرئيس، ويحفظون أصولها طبعاً ببرٍّ وحكمة

إن كرازة الرسل، التي كان هدفها نشر البشارة إلى أنحاء المسكونة، أينعت بظهور روح النسك فيما بين المؤمنين

ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم، إنَّ النار التي تحدَّث عنها الرب يسوع، بأنه ألقاها على الأرض ويشاء أن تضطرم "جئت لألقي ناراً على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت" (لو ١٢:٤٩)، قد أُعطيت لقلوب الناس، وأشعلت فيهم حياةً جديدة، أحيت نفوسهم بعد أن كانت قد أعيتها الملذات الجسدية، فغدوا أحراراً، وبدأوا يشعرون بالحاجة وبالمقدرة على الطيران من الأرضيات إلى السماويات بأجنحة جديدة

وبمقدار اشتعال هذه الشعلة فيهم، بمقدار ما كانوا يشعرون بالحاجة الماسة للتحرّر من فخاخ العالم، والهروب إلى البرِّية من أجل التكريس الكامل لِمَنْ لله

إنَّ الأنبا بيمن، في حديث له مع القديس يوحنا كاسيانوس الرومي ،يستند إلى الأمر نفسه بقوله: "ظهرت الحياة المشتركة في

عصر كرازة الرسل". وفيلون مؤرخ الكنيسة، يكتب فيما يختصّ بهذا الأمر:"منذ بداية كرازة الرسل، كانت تتواجد فيما بين المسيحيين، جماعات يتميَّز أعضاؤها بمحبتهم الخاصة وحكمتهم، أي كانت لديهم الرغبة الجامحة نحو جهادات نسكية أعظم وحياة تأملية، وهذه الصفات تميّز الحياة الرهبانية في شكلها النقي والتي لا يمكن أن تضمنها حياة مسيحية بسيطة، ضمن ضجيج العالم ومجده الباطل، بالرغم من أن مثل هذه الحياة ليست مرفوضة بحد ذاتها

إذن، فهؤلاء المهاجرون من كلِّ العالم المسيحي المستنير حديثاً، قد هجروا بيوتهم وأهلهم وأقاربهم وأصدقاءهم، لكي يحققوا هدفهم السامي، وانسحبوا إلى الغابات والبراري، لكي يختفوا كلياً عن أنظار العالم، ويعملوا بحرية من أجل الرب وحده فقط، في انعزال كامل، وقد تمَّ فيهم كلام المزمور:"هاأنذا كنت أبعدُ هارباً وأبيت في البريَّة... أطلب الرب فيخلّصني" (مز٥٤:٨)

وهكذا إذاً، ظهر الشكل الأكثر جدية للرهبنة: الحياة في البرية

ولقد عاش البعض من أولئك النسَّاك الأوائل، منفردين بشكلٍ كامل، و لم يقبلوا أحداً أبداً، مثل القديس مرقس من أثينا (يعيَّد له في ٥ آذار) الذي عاش في عزلةٍ كاملة أكثر من تسعين سنة، دون أن يرى وجه بشر. كما يوجد آخرون كثيرون جداً، يرد ذكرهم في

السنكسار وفي كتاب الإفريتينوس[1]، كما أن أغلبيتهم لم تصل أسماؤهم إلينا. وهكذا ابتدأت حياة البريّة في الإنتشار، وكان النسّاك يعيشون إمَّا في قلالي منعزلة، أو بالأحرى في مغاور طبيعية؛ وإما في قلالي قد حفروها بأيديهم، وهي حالياً ليست بعيدة الواحدة عن الأخرى، وذلك لكي يستطيع الرهبان، من جهة أولى، أن يساعدوا بعضهم بعضاً أخوياً لسدِّ احتياجاتهم، ومن جهة ثانية، لكي تكون لهم تعزية ما روحية، عندما يشاهدون بعضهم بعضاً من حين لآخر، ويتبادلون الخبرات الروحية والنصائح. وما كانوا يسمحون لأنفسهم بذلك إلا لأسباب روحية فقط من أجل المنفعة، وفقط في أيام الأعياد عند اجتماعهم في الكنيسة لتناول القرابين المقدسة

فالسكنى بهذه الطريقة، نشأت على الأغلب، من الحاجة التي كان يشعر بها كلُّ مَنْ أراد أن يترك العالم ويسكن البرية، ليس فقط بحثاً عن المكان المناسب لتحقيق هدفه، بل ولكي يجد في الوقت نفسه ناسكاً مختبراً يستطيع أن يقوده في الحياة النسكية، أي مرشداً روحياً. وفي حين أن النسّاك يتضايقون عند انقطاع هدوئهم بحضور شخص جديد، إلا أنهم لا يرفضونه من أجل المحبة المسيحية، فكانوا يعلّمونه أولاً أصول الحياة النسكية وأسسها، ليس

[1] وقد ترجم من اليونانية إلى العربية، تحت اسم "كيف نحيا مع الله"

بالكلام وحسب، إنما بمثالهم الصامت والحي. فإذا وجدوه ملائماً، كانوا يسمحون له بالسكنى في البرية، ويمنحونه مغارة أو قلاية قد حفروها، إلا أنّهم لم يكونوا يتوقفون عن متابعة أسلوب حياته، إلى أن يصل إلى درجة من الكمال. وهكذا تكوّنت المناسك

إذاً، أماكن مجهولة، لم يسكنها بشر، عاشت فيها فقط حيوانات بريّة، وها هي الآن قد امتلأت بالقلالي ومغاور النسّاك، الذين حسب قول الرسول: "طافوا في جلود غنم وجلود مِعزى معتازين مكروبين مذلّين. وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم. تائهين في براريَّ وجبال، ومغاير وشقوق الأرض" (عب١١:٣٧-٣٨)

وظهرت البريّة مثل فردوس مغروس من قبل الله، وكزهرة للنسك، فوّاحة العطر

ولم يتوقف النسك على الرجال فقط، بل وُجدت النساء أيضاً اللواتي شاركن في حياة النسك، وقدّمن أمثلة عجيبة في نكران الذات، وظهرن مستحقاتٍ لمواهب النعمة العظيمة

فالنار السماوية التي أتى بها المخلّص إلى الأرض، انتقلت أيضا إلى قلوب المخلوقات الأكثر ضعفاً، إلى النساء، وتأجّجت داخلهن شعلة المحبة الإلهية فأحرقت فيهن كل ما هو أرضي وزائل

ويقول القديس يوحنا الذهبي الفم:"في بداية الحياة المسيحية،

ظهر في منطقة مصر جيشٌ عجيبٌ للمسيح، كان يعيش حياةً تليق في طبيعتها بالقوات السماوية فقط، وهذا الجيش لم يكن مؤلفاً من الرجال فقط، بل ومن النساء أيضاً، اللواتي عِشْـــنَ حياة التألّه بدرجة لا تقل عن الرجال، وكنَّ يحاربن الشيطان وقوى الظلام دون أن تعوقهنَّ عن ذلك طبيعتهن الأنثوية. فهؤلاء ربما لم يتمتَّعن بالقوة الجسدية الكافية، إلا أنه بدلاً عنها كنَّ يتمتَّعن بمشاعر أشدَّ حيوية وحساسية"

إذاً، هؤلاء إذ كنَّ يشتعلن بمحبتهن للرب، كانت لديهن إرادة لا تتزعزع وتصميم بالصبر على كل حرمان وإماتة، وذلك من أجل يسوع الحلو جداً. فالإحساس الحيّ والمحبة المضطرمة قد منحاهنّ القوة والشجاعة لاتّباع طريقةٍ نسكيةٍ قاسيةٍ وجادّة. "ليس ذكر و أنثى لأنّكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع" (غلا ٣:٢٨). كانت بريّة مصـــر ســـراجاً، ليس فقط للرهبنة الرجالية بل للرهبنة النسائية أيضاً، يقول القديس بولس الفرمي[1] للأنبا مكاريوس في موضع ما:"لقد عرفت بتولاً متوحدة لم تغادر مغارتـــها مدة ثلاثين سنة، وكانت تأكل فقط يومَيْ السبت والأحد". ففي الإسكندرية والمنطقة المحيطة بـــها، كانت تعيش كثيرات من البتولات، بعضهن سوية

[1] يُلقّب يالفرمي نسبةً إلى جبل في مصر

وبعضهن متوحدات، في قلالٍ ومغاور، أو أيضاً حبيسات كلياً في القبور. ولم يكنَّ يبتعدْنَ عن مكانـــهن أبداً، بل يقبلْنَ الطعام من نافذةٍ صغيرة أو من فتحةٍ ما صغيرة. ومن بينهن كانت القديسة ألكسندرة، التي كتب عنها المؤرخ الشهير ذيزيموس، أنـــها عاشت داخل قبرٍ حوالي عشر سنوات دون أن تخرج منه ولا مرة واحدة، وكانت تتهيأ للخروج من هذه الحياة بعد أن أُعلن لها عن ساعة موتـــها

ويذكر بلاذيوس، أنه عندما كان القديس أثناسيوس مطارَداً بسبب معارضته للآريوسيين، اختبأ حوالي ست سنوات في بيت راهبة تدعى سينكليتيكي، التي خدمته في كلّ حاجاته، فكانت تجلب له كلّ ما احتاجه من الكتب وكلّ ما يلزم

وبلاذيوس نفسه أيضاً، الذي كان أسقفاً على مدينة إيلينوبوليس، يتكلم في مكان آخر عن بتول أخرى، عاشت حبيسةً مدة ستين ســـنة متتالية، ظهر لها القديس الشهيد كولوثـــوس قبل موتـــها، وأعلن لها عن ساعة موتـــها ونـــهايتها البارة

فالرهبنة إذاً لم تظهر نتيجة لسبب خارجي، أو من أجل التجديد، بـــل كينبوعٍ جديد متميّز، تعبيراً سامياً للروح الإنسانية التي تطير بأجنحة المسيحية. لذلك فالرهبنة لا يحدُّها مكانٌ أو زمان

أو شروط بشرية، لأنَّ الروح حرٌّ في أشواقه، والشرط الوحيد له هو إرادته

عندما قرر القديس أنطونيوس الكبير أن يعيش حياة هدوء مطلق، ولكي يتحرر من كلِّ اهتمامٍ أرضي، أودع أخته الشابة في عنايـــة "نساء بتولات، كنَّ يعشن متوحدات، وكان المسيح لهن ختناً". فواضح إذاً أنه قبل أن يترك القديس أنطونيوس العالم، كانت الحياة الرهبانية

النسائية قد بدأت بالظهور. وفي سيرة القديس إيسيذوروس كسينوذوخوس في كنيسة الإسكندرية، يُذكَر أن أخواته عِشْنَ في دير كان يحتوي على سبعين من البتولات

ملكاتٌ وأميراتٌ، تركن قصورهن الفخمة، وثرواتـــهن التي لا تُحصى، من أجل حياة البريّة القاسية والفقر الاختياري، ومن بينهن كانت أبولينارّية ابنة إمبراطور رومية، وأفجانيّة وأفبراكسيّة وأولومبية وكسينيّا، إضافةً إلى جمعٍ غفيرٍ من البتولات الحكيمات اللواتي يعلم بـــهن فقط الله الكلي المعرفة، واللواتي جاهدن في سبيله

نرى إذاً، أنَّ الرهبنة النسائية في شكلها النسكي، وأيضاً في شكلها الجماعي ضمن حياة الشركة في الأديار، ظهرت في الوقت نفسه تقريباً الذي ظهرت فيه الرهبنة الرجالية، في البدايات الأولى

للمسيحية. وشكّلت بحسب تعبير القديس يوحنا الذهبي الفم: "الزهرة والزينة والمجد والعمود لكمال المسيحية"

أمـــا بالنسبة للتنظيم الخارجي، سواء لحياة البريّة أو للحياة في أديار الشركة، فقد بدأ بالظهور في القرن الثالث بعد المســـيح، لأنه حتى ذلك الحين، كانت الكنيسة في اضطهادٍ مستمر تقريباً، من قِبل الأباطرة والملوك الوثنيين. وكان المسيحيون حتى ذلك الحين يختبئون لكي ينجوا من ملاحقة المعذّبين، وكان من المستحيل أن توجد حتى فكرة تنظيم حياة شركة، ولكن "مُلْكُ الأرض في يد الربّ فهو يقيم عليها في الوقت المناسب مَنْ به نَفعُها" (حكمة سيراخ ١٠:٤)

وفي القرن الثالث، هيّأ الله أعمدةً كبرى في الرهبنة: القديس أنطونيوس الكبير مؤسِّس حياة البريّة، والقديس باخوميوس الكبير منظِّم حياة الشـــركة المستمرة حتى الآن. قال القديس أنطونيوس عن القديس باخوميوس: "لقد قدَّم خدمةً كبيرةً بجمعه الإخوة، لأنـــه في البداية عندما صرت أنا راهباً، لم يكن يوجد دير للشركة من أجل تربية المبتدئين في الرهبنة، بل كان كلُّ واحدٍ يعيش بحسب تمييزه، ويجاهد دون أن يحصل على التوجيهات من أحد"

وإن الله نفسه هو الذي أمر القديس باخوميوس بتأسيس حياة الشركة. فلقد سافر القديس مرة ما، وذهب إلى ثافينا على ضفاف

النيل بعيداً عن مكانه، وفي إحدى الأيام، بينما كان يصلّي، سمع صوتاً يقول له: "ليس من الضروري أن تعيش بعد الآن في مغارتك، أُخرج خارجاً، إجمع جميع الرهبان الشبّان واسكن معهم، وأعطهم القوانين كما سأمنحها لك". ومع هذه الأقوال ظهر ملاكٌ أمامه، وقدّم له لوحاً نحاسياً مكتوبة عليه قوانين الحياة الرهبانية، والتي سُميت فيما بعد "تيبيكون". وكان هذا التيبيكون يطبَّق في جميع أديار الشركة حيث كان هو رئيساً عليها ومرشداً لها، وتناقلته الأديار فيما بعد كالميراث، ومع مرور الوقت تغيَّر قليلاً، ولكن المبادئ الأساسية بقيت دون تغيير حتى أيامنا هذه، أيام الفقر الرهباني

إذاً، ها قد كتبتُ لكِ أيتها الأخت، وحدثتك بشكل مختصر، عن أسس الحياة الرهبانية، التي حدّدها الله بواسطة ملاكه الذي كتب "التبيكون الرهباني" وسلّمه للقديس باخوميوس

فماذا سنجيب اليوم نحن الرهبان الكسالى، الذين ارتدينا الثوب الرهباني، ولكننا لم نقتنِ الروح الرهباني؟

فكّري في ماهية الطريق الذي اخترتِه وما هو مكانكِ، واسلكي حياتك الرهبانية بتعقّل، وسأُنهي كلامي بقول القديس بولس الرسول: "فأطلب إليكم أنا الأسير في الرَّبّ أن تسلكوا كما يحقُّ للدَّعوة الّتي دعيتم بها. بكل تواضع و..." (أف ٤:١-٤)

الرسالة الثالثة

حول الخضوع للرؤساء

أطيعوا مرشديكم واخضعوا لهم لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم
(عب ١٣:١٧)

إذاً، ها التجربة فوراً! ها الاضطراب!

لم أتوقع أن أسمع منك ما كتبته لي، وكيف كان من الممكن أن أتوقع من مبتدئة شابة، أن تتجرّأ وتحكم وتقيِّم سلوك وشخصية الرؤساء، الذين بعد جهاد دامَ سنين طويلة، اقتنوا خبرةً في الحياة الروحية، وأحرزوا تقدُّماً روحياً

"مَنْ أقامك رئيساً وحاكماً علينا" (خر ٢:١٤). فإذا كانت إدانة الراهب أو المبتدئ هي خطيئة كبيرة، فكم من الرهيب والمرعب أن تَدينِي أنتِ وتتكلمي على الشيخات؟

وإنه لمرعبٌ إن كانت أولئك مؤتمَنات على نفسكِ وإرشادكِ الروحي نحو الخلاص، ويحملن عنك المسؤولية ليس فقط أمام مَنْ يرأسهم على الأرض، بل وأمام ربنا وإلهنا نفسه. فكم ينبغي

أن تخجلي من نفسكِ أيتها الأخت! على أيّ شيء تتذمرين؟ وماذا تحاولين أن تُظهري؟

إنكِ تكتبين: "إن اليروندِيسا[1] التي عيَّنَتْها الأم الرئيسة مسؤولةً عني هي شديدة القساوة، ويصعب عليَّ أن أرضيها". ومن فمكِ أدينكِ (لو ١٩:٢٢)، لأنكِ تعترفين أن هذه اليروندِيسا قد عيَّنَتْها الأم الرئيسة، وطالما أنّ الأم تعرف طباع جميع الراهبات وخاصةً اليروندِيسات، وأنهنّ عِشْنَ الحياة الرهبانية سنوات طويلة في الدير، وتعرف أيضاً طباعكِ وميل نفسكِ، فهي إذ قد سلّمتها إياكِ، واختارتها هي بالذات وليس غيرها، لم تفعل ذلك بدون سبب أو بدون أن تقدِّر الاحتمالات الواردة، وبالطبع لم تفعل ذلك بدون إيحاء من الله، لأنه "لا سيادة على الأرض إلاّ من الله" (رو ١٣:١). إذاً ينبغي أن تتقبَّلي كلّ تحديد وكلّ قرار يأتيكِ مِمَّنْ هم أعلى منكِ وكأنه من يد الله، وأن تتذكّري كلمات الرسول: "إذ مَنْ يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة" (رو ١٣:٢)

إذاً، إخضعي لليروندِيسا بثقةٍ لا تتزعزع ومحبةٍ حقيقية، وتخلّي عن التكلّم بالتفاصيل، مما يسبِّب هدم نفس الراهبة

[1] إن كلمة (يروندِيسا) تعني "شيخة"

المبتدئة التي دخلت حديثاً إلى الحياة الرهبانية

لا تديني أعمال اليروندِيسا المسؤولة عنك وصفات شخصيتها، وما الفائدة المجتناة من ذلك؟ فأنتِ هي التي تخضع لها باسم الرب، وعليكِ أنتِ بالطاعة الكاملة لها وليس هي

لا تبرري نفسك، فالتبريرات تعيق عملية خلاص الراهب، وتجعله أعمى يتعثَّر في طريقه نحو النجاح. وأعيد الكلام ثانية، أُتركي نفسكِ لإرادة مرشديك الروحيين بدون اعتراضات، واسمحي لهم أن يعيدوا جَبْلَكِ كما يفعل عمَّال الشمع، وكما يفعل الحدَّادون بالمعادن. أُتركيهم يليِّنون معدن طبعكِ الصعب الخضوع والمتكبِّر، ويسكبوه في قوالب التواضع، لكي ترددي فيما بعد بحكمة وتمييز، كلام المزمور: "ذَكَرَنَا الرب في مذلّتنا" (مز ١٣٥:٢٣)، "وخيرٌ لي أنك أذَّبتني حتى أتعلَّم حقوقك" (مز ١١٨:٧١)، إذاً فأنتِ أيضاً ترين أن حقوق الرب، أي الأمور المَرضيّة لديه، لا نتعلّمها بدون تواضع، أو بالأحرى بدون توبيخ الذات

إن العذارى كنّ عشرة في العدد، وكنَّ ينتظرن قدوم العريس في منتصف الليل. إلاّ أنَّ نصفهن فقط صرن مقبولات في العرس. أما الأخريات اللواتي لم يكن لديهنّ زيت، ففضلاً عن خجلهن وألمهن،

لم يصرن غير مقبولات وحسب، بل وأيضاً سمعن كلام الختن الرهيب: "الحق أقول لكنّ إنّي لا أعرفكن" (متى ٢٥:١٢)

إنتبهي إذاً ألا توجدي أنتِ أيضاً بلا زيت، أي بدون التواضع والطاعة، اللذين بغيابهما سينطفئ مصباح إيمانكِ وغيرتك لدى الرب

إنك تنتظرين بشوق تلك الكرامة العظيمة، أي أن تصبحي عروساً للمسيح، وأن تظهري مستحقة لأن تملكي معه إلى الأبد. ولكنكِ تعتقدين أنه يمكنكِ تحقيق ذلك بدون أتعابٍ وبدون جهادات وبدون نكرانٍ للذات!

لا تنسي أنه "بالأتعاب تُقتنى المآثر"

أحقاً من الصعب جداً هو أن نخضع لإرادة أولئك الذين يقودوننا في طريق الخلاص، في الطريق التي طالما تمنّيناها نحن أنفسنا وطلبنا أن نسلكها، وذلك عندما توسَّلنا من أجل قبولنا في الدير؟

إنكِ بعصيانكِ وإرادتكِ، تعيقين عمل مرشديك الروحيين، والذي هو بحدّ ذاته عملٌ صعبٌ حتى من دون تواجد آرائكِ المزاجية، فتُسبِّبين لهم الحزن والتنهُّد. إسمعي ما يقوله الرسول حول ذلك: "أطيعوا مرشديكم واخضعوا لهم، لأنهم يسهرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حساباً، لكي يفعلوا ذلك

بفرحٍ لا بكربٍ، لأنّ هذا غير نافع لكم". (عب ١٣:١٧)

في الرسالة القادمة، سأحاول أن أعرض لكِ بالتفصيل، تعليم الآباء القديسين فيما يتعلّق بالطاعة وبفترة اختباركِ لها، مع أمثلةٍ من حياة الرهبان، وسأحاول أن أُظهِر لكِ سمو الطاعة والمعنى الذي تملكه كدرجة أولى لنجاح هدفكِ. إن الطاعة في الرهبنة هي الأساس والهيكل والسلّم. والرهبنة نفسها تستند أساساً وأولاً على الطاعة. إنّ الجهادات والأتعاب التي تقومين بها، إذا تمّت بإرادتك الخاصة وبتمييزكِ الخاص، بدون بركة آبائكِ الروحيين من أجل الخلاص، أي بدون طاعة، لا يمكن أن تكون مرضية لدى الله، طالما أنها ثمار إرادتكِ

عليكِ أن تعتبري اليروندیسا والمسؤولة عنكِ روحياً، وسيطاكِ لدى الرب، لأنهما كرَّستا كلَّ حياتهما من أجل خلاصكِ، وستقدمان جواباً عنكِ. ولا شيء يسبب لهما الحزن الكبير أكثر من عصيانكِ وكسلكِ. وبالعكس، فإن فرحهما الأكبر هو عندما تشاهداكِ تتقدمين في التقوى والقداسة، بحسب قول الرسول: "ليس لي فرح أعظم من هذا أن أسمع عن أولادي أنهم يسلكون بالحق" (٣يو: ٤)

الرسالة الرابعة

حول الطاعة

لأني قد نزلتُ من السَّماءِ ليس لأعمل مشيئتي بَلْ مشيئة الذي أرسلني
(يو ٦:٣٨)

ترى مـــا هي الطاعـــة؟ إن كلمة "طاعـــة" تعني الخضوع لإرادة أحد ما

وصية الطاعة هي الوصية الأولى، فعندما كان الجدان الأولان في الفردوس في حالتهما الأولى البريئة، كانت الوصية الأولى التي أعطاها الله لهما، ألا يأكلا من ثمار شجرةٍ معيّنة. ومخالفة هذه الوصية، هي التي قادتـــهما إلى السقوط

أما الآن بالنسبة للحياة الرهبـــانية، فالـــطاعة لها معنى معيّن أوسع، لأنـــها تتضمّن ليس فقط المعنى الضيِّق في تطبيق الوصايا، ولكن أيضا الفضيلة الرهبانية العظيمة، والتي هي النكران الكامل لذواتنا

فالإرادة، أي الإرادة الحرّة، هي أثمن ثروةٍ لدى الإنسان منحه

إياها الله. وهذه الحرية العظيمة القيّمة، يقدّمها للرب اختيارياً كذبيحة، كلُّ مَنْ يطلب الحياة الرهبانية

أواه... في بعض الأحيان، كم من الأحزان والجهادات تسبب هذه الذبيحة لمبتدئة مطيعة حقاً. وإن التي انقضت عليها سنوات كثيرة في قطعٍ كاملٍ للإرادة حفاظاً على طاعة إرادة شخص آخر، قد ذاقت هذا جيداً، ولكن في الوقت نفسه، ذاقت أيضاً وتعلّمت بخبرتـــها أن "لأنَّ نيري هيِّن وحملي خفيفٌ" (متى١١:٣٠)

يقول القديس اسحق السوري، الناسك العظيم الذي عاش في القرن السادس الميلادي: "إن الشهداء، ليسوا فقط هم أولئك الذين ضحّوا بحياتـــهم من أجل إيمانـــهم بالمسيح، بل وهم أيضاً أولئك الذين يموتون من أجل الحفاظ على الوصايا". إن المبتدئة الحقيقية ميتةٌ بالنسبة للإرادة والرغبات من الناحية الفكرية، أي أنـــها ميتة من ناحية الفحص والحكم على التوصيات التي تتلقاها، بحيث تقول مع الرسول: "لست أنا أحيا بل المسيح يحيا فيَّ" (غلا٢:٢٠)، الذي صـــار هو نفسه "طائعـــاً حتى الموت" (فيليبـــي٢:٨)، وقال: "لا أطلب إرادتي بل إرادة الذي أرسلني" (يو٥:٣٠). والذي في تلك اللحظة الرهيبة، قبل آلامه على الصليب، عندما "خرَّ على وجهه" (متى٢٦:٣٩) لكي يصلّي إلى الآب السماوي، وصار عرقه كقطرات

دمٍ نازلةٍ على الأرض" (لو ٢٢:٤٤)، صرخ نحو الآب كابنٍ مطيع، "لتكن لا إرادتي بل إرادتك" (لو ٢٢:٤٢)

إذاً، فجميع المبتدئات والراهبات اللواتي يعشنَ في الطاعة يتشبهنَ بالمسيح

عليكِ أن تتعلّمي أنّ الطريق الذي اخترته، هو الطريق الأقصر والأضمن إلى ملكوت السماوات. لأنكِ تعبرين به بحر الحياة، ولا تعومين وحدكِ بواسطة يديكِ ورجليكِ،بل فوق أشخاص آخرين

فأنتِ تبيعين ذاتكِ أَمةً بإرادتكِ، وتشترين حريتكِ الأبدية برباطات هذه العبودية

يقول القديس يوحنا السلّمي[1]، المثال العظيم في الرهبنة في مقالته عن الطاعة: "أنتم جميعاً الذين تودون الدخول إلى ساحة الاستشهاد النفسي هذه، الذين تريدون أن تحملوا على أعناقكم نير المسيح، والذين تـــهتمون في أن تحمِّلوا ثقلكم على عنق شخص آخر، الذين تسرعون لكتابة صكِّ بيعكم وتودون أن تحصلوا عوضاً عنه على حريتكم، وأخيراً أنتم الذين تُحمَلون على أيدي آخرين وتجوبون اليمَّ العظيم، إعلموا أنكم تسلكون طريقاً مختصرةً وسريعة"

[1] وقد لقب بالسلّمي، نسبة إلى كتابه (السلّم إلى السماء)

وفي المقالة نفسها يقول: "الطاعة هي نكرانٌ كاملٌ لنفوسنا، سَفرٌ في البحر بدون خطر، سلوك الطريق مثل النائم، عدم الخوف من الموت، وقيامةٌ أكيدة"

كذلك القديس اسحق السوري' يؤكّد على ما نكرره اليوم إذ يقول، "إذا متَّ قبل أن تموت، فإنك لن تموت عندما ستموت!". أي إذا متَّ خلال مسيرة حياتك عن إرادتك وعما في العالم، فعندئذ بعد موتك الطبيعي ستعيش أبدياً

نعلم من حياة البار المطيع أكاكـــيوس، أنّه أطاع صوت أبيه وأجاب على سؤاله بعد موته من داخل القبر. وذلك رغم أن أباه كان يتصرف معه بقساوة وبدون إنسانية، فكان يعذّبه ليس فقط بالشتائم والإهانات، بل وبالضرب أيضاً، وبدون داعٍ أو سبب؛ أما أكاكيوس فكان يصبر على كلّ شيء بدون احتجاج، مثل عاملٍ حقيقي للطاعة، وكان أيضاً يحفظ في نفسه وبتواضع حقيقي، كلَّ محبةٍ واحترامٍ لأبيه الروحي

وفجأة، توفي أكاكيوس، فتسارع الذين سمعوا بنبأ وفاته إلى زيارة أبيه، لكي يشاركوه حزنه على خسارة هذا التلميذ المتواضع المطيع، وإذ لم يكن يعلم بعد بوفاة تلميذه قالوا له: "أيها الأب لقد توفي الأخ أكاكيوس"، فقال لهم: "صدقوني أيها الآباء، إنني لا أصدق

أنه مات". ولكي يؤكّد لهم كلامه ذهب معهم إلى المقبرة وصرخ نحو الميت وكأنّه حيٌّ: "أيها الأخ أكاكيوس هل متَّ؟"، عندئذٍ أجاب أكاكيوس، ذلك التلميذ الصالح، مُظهِراً طاعته حتى بعد الموت أيضاً: "أيها الأب، كيف من الممكن أن يموت الإنسان المطيع؟"

يا لسمو الطاعة الحقيقية! هذا ليس ضرباً من الخيال أو قصة مأخوذة من كتاب عالمي، بل هو رواية مأخوذة من كتاب "حياة القديسين" ومعروفة في الكنيسة، وقد كتبها أسقف قديس، مجّده الله بالعجائب وبعدم فساد بقاياه

إذاً، طالما أننا نعرف هذه الأمور جيداً، ونؤمن بـــها بيقين، فلماذا ننظر إلى هذه الحقائق العظيمة بكلّ برودة ولا مبالاة واستخفاف؟ ولماذا لا نستفيد منها؟ وليس هذا فقط، بل نتغاضى عنها ونتجاوزها وكأنها لا تعنينا على الإطلاق!

"تقسَّى قلب الشعب" (أش ٦ : ١٠) كما يقـــول النبي أشعياء، و"لأنّهم مبصرينَ لا يبصرونَ وسامعينَ لا يسمعون ولا يفهمون" (متى١٣:١٣)، إلا أنـــها كلّها كُتِبت "من أجل تعليمنا" (رو١٥:٤)، و"كيف نفلت نحن إن أهملنا خلاصاً عظيماً كهذا" (عب٢:٣)، مع أنه "يحدق بنا مثل هذا السحاب من الشهود" (عب١٢:١)

ولنتذكّر أيضاً تلك المبتدئة المطيعة، القديسة إيسيذوره، التي لم تكن فقط تقوم بالخدمات الأكثر صعوبة في الدير دون تذمّرٍ وبتواضعٍ عميق، وتحتمل الإهانات والشتائم بصبرٍ عجيب وحسب، بل وكانت أيضاً تُخفي جهاداتـــها النسكية العظيمة وفضائلها بستار بساطتها (تبالهها) الظاهرية

وإلى أية نـــهاية قد أوصلتها جهاداتـــها يا ترى؟

لقد شاهد الناسك العظيم بتيروم في رؤيا إلهية، أنه توجد في ذلك الدير مَنْ قد فاقته في الجهاد الروحي. فذهب إلى هناك وطلب رؤية تلك المبتدئة القديسة ـ لأنـــها من أجل تواضعها الكبير، لم تذهب لاستقباله مع بقية الراهبات ـ وجثا عند قدميها أمام الجميع، طالباً منها أن تباركه وتصلّي من أجله. أرأيت عظمة الطاعة؟ إنـــها تفوق كلَّ جهادات النسَّاك!

إنّ عمل نجاحك في الحياة الرهبانية، وعمل خلاصك هو بين يديك

أفليس من المُخجِل ومن المحزن إذاً، أن تضيِّعي خلاصك من بين يديكِ؟

وإذا أردت أن تقولـــي الآن إنَّ الطاعـــة الحقيقية هـــي صعبـــة، فأظهري لـــي إذاً عملاً واحـــداً حسناً سهلاً في هـــذه

الحياة، ويمكـــن تحقيقـــه دون تعب

وكيف يمكن أن ينتظر المرء أجراً أو تعويضاً، إذا لم يجاهد أولاً ويحتمل المشاق من أجل الحصول عليه؟

ألستِ أنتِ نفسكِ التي اخترتِ طريق الرهبنة معرضةً عن غيره، من أجل خلاصكِ؟ أوَ ليست الطاعة يا تُرى أساساً لهذا الطريق

فبمقدار ما تسلكين إذاً في هذا الطـــريق، لن تتمكني من الهروب من الطاعة، وعليكِ أن تطبّقي إرادة مرشديكِ الروحيين شئتِ أم أبيتِ. واعلمي أنكِ إذا مارســـتِ الطاعة بالحرارة اللائقة وبالتواضع اللازم مع الصبر، ستكونين عندها مبارَكَة، ومماثلة ومشاركة للقديس أكاكيوس وللقديسة إيسيذوره وللمطيع ذوسيثاوس وبولس البسيط، وغيرهم ممن حصلوا على إكليل الطاعة

أما إذا قمتِ بالطاعة بتذمرٍ واعتراضات، واضـــعةً إرادتك الخاصة أمامكِ، فلا يمكن للمرء إلاّ أن يحزن عليكِ، لأنكِ تضيّعين أتعابكِ وأكاليلكِ من بين يديكِ

وسأروي لك هنا قصة من كتاب الإفريتينوس، كمثال ودليل على أن الله لا يترك أيَّ عمل من دون مكافأة، هو الذي يحصي شعور رؤوسنا أيضاً (متى١٠: ٣٠)

عاش راهبٌ تحت طاعة رئيسه، الذي كان قد أوصاه، من جملة ما أوصاه، ألا يذهب للنوم أبداً قبل أن يأخذ بركته. وفي إحدى الأمسيات، بعد أن أنهى التلميذ قانونه، ذهب إلى رئيسه لكي يأخذ بركته، فوجده جالساً وقد أخذه النوم، ومرَّت الساعات ولم يستيقظ الرئيس. وبينما التلميذ واقف أمام رئيسه، شعر بالضجر، وأراد مراتٍ عديدةً أن يذهب لينام دون أن ينتظر استيقاظ رئيسه، ولكنه كان في كلِّ مرةٍ تأتيه هذه الفكرة، يطردها بقوله إنه لم يأخذ البركة وبالتالي سيخالف الوصية، ولم يكن يذهب. واستمر واقفاً هناك أمام الرئيس النائم ينتظره حتى يستيقظ، ولما فتح الرئيس عينيه ورأى تلميذه واقفاً سأله: "ماذا تفعل هنا يا بني، في هذه الساعة؟". أجابه التلميذ: "لا أفعل شيئاً أيها الأب، لقد نعست وكاد أن يأخذني النوم أنا أيضاً، ولكني كنت أنتظر بركتك، لأنك أوصيتني ألا أنام دون أن آخذ البركة". فسأله الرئيس: "كم مرة جاءك فكرٌ أن تذهب لتنام؟". فلم يتذكر التلميذ، عندها قال له الرئيس: "لتكن مباركاً يا بني لأنك حفظت الطاعة. صدّقني لقد رأيت خمسة أكاليل نازلة من السماء على رأسك الواحد تلو الآخر، إنها أكاليل الطاعة التي يتكلّل بها المطيعون الحقيقيون، الذين تخلوا عن إرادتهم ورغباتهم"

في هذا المثال، يمكن للإنسان أن يرى بوضوح أن أية محاولة

لتطبيق الوصايا، مهما كانت صغيرة، لا تبقى بدون مكافأة من يد واهب الأجور الذي قال:"من سقى أحد هؤلاء الصِّغار كأس ماءٍ باردٍ فقط باسمِ تلميذ، فالحقَّ أقول لكم إنه لا يضيع أجره". (متى١٠:٤٢)

ليس لدي الوقت الكافي، كما أنه من غير الممكن أن أورد لك الأمثلة التي لا تحصى، عن نكران الذات العظيم من أجل الطاعة. تلك الأمثلة التي تمتلئ بها كتب السنكسار والإفريتينوس وأقوال الآباء الشيوخ وغيرها

إن كتب حياة القديسين تحوي الكثير من القصص عن الطاعة، فإن أردت أن تكوني مبتدئة حقيقية، ليس بالاسم فقط، بل بالحياة اليومية، عليك أن تطالعيها باستمرار، ولكن المطالعة وحدها لا تكفي، لأنه "لأن ليس الَّذين يسمعون النَّاموس هم أبرارٌ عند الله بل الَّذين يعملون بالنَّاموس هم يبرَّرون" (رو٢:١٣)، لذلك عليك أن تحفظي معانيها في ذاكرتك

أما إذا فهمتِ ما تقدَّم، ولكن لم تتابعي جميع حركات قلبك وذهنك من أجل تطبيقها، بسبب كسلكِ وعدم يقظتكِ، فإنك لن تنجي من الدينونة، تماماً مثل ذلك العبد الذي عرف إرادة سيده ولم يعملها (لو ١٢:٤٧). فكّري بذلك وانتبهي

الرسالة الخامسة

حول أجر المحبة

من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره
(١يو ٤: ٢٠)

أيتها الأخت، إعلمي أنه بالرغم من قرارك الثابت في أن تتكرّسي لحياة مرضيّة لله، تحت سقف الدير بسلام، كما تمنيت وكما كتبت لي: "لكي تجدي ملجأً هادئاً لا اضطراباً وتشويشاً"، ولكن يبدو أن المجرِّب لم يتأخر عن زيارة نفسك. فما يحدث؟

ما الذي سبّب لك هذا الاضطراب وأرعبك لهذه الدرجة؟

قبل أي شيء آخر، إسمحي لي أن أقول لك ما يلي:

إذا كنت تعتقدين أنه يمكنك أن تجدي الفردوس على الأرض وحتى داخل الدير، فأنت مخطئة. فالفردوس ليس على الأرض، ولا يمكن أن يوجد على الأرض، لأن الإنسان لم يُخلق من أجل الأرض بل من أجل السماء، ولكي يرث الفردوس في السماء ينبغي أن يرثه أولاً على الأرض، بأتعاب كثيرة وأحزان وآلام كثيرة، أي باهتمام

كبير، كما يقول الرسول: "بضيقاتٍ كثيرةٍ ينبغي أن ندخل ملكوت الله" (أع١٤:٢٢)

وكما قال الرب نفسه، والذي كان الناسك الأول في حياته على الأرض: "ملكوت السَّماوات يُغصب، والغاصبون يختطفونهُ" (مت١١:١٢)

وإذا كنتِ تتمنين البحث عن الفردوس، فلا تبحثي عنه بين جدران الدير ولا في الغابة، بل في داخلكِ، في نفسكِ، لأن "ملكوت الله داخلكم" (لو١٧:٢١)

فإذا استطعتِ أن تشاهدي ملكوت السماوات في داخلكِ، عندئذٍ لن تتذمري على الأشخاص الآخرين، مدَّعية أنهم السبب في تجاربك

تقولين إن بعض الأخوات تُعاملْنَكِ بقساوة وهذا يسبِّبُ لكِ الاضطراب

كثيرون هم ضعفاء النفوس، أي غير كاملين في المحبة (١يو ٤:١٨)، وأنا أيضاً وقتاً ما كنت أعاني من الضعف، وعندما اعترفت لدى أحد الآباء المستنيرين باضطرابي وحزني، قال لي: "بالأعين التي ترين بها الآخرين، هكذا سيظهرون هم لكِ"

فالفضلاء والكاملون أيضاً، قد يظهرون لنا معوجّين ولديهم نواحي مظلمة، بينما على العكس قد نرى الأشرار صالحين

يمكننا أن نتأكد من ذلك بسهولة من خلال ذواتنا أيضاً، لأننا كثيراً ما نحاول تغطية أخطائنا وعثراتنا بتصرفٍ حسن، في الوقت الذي نتصرف فيه بقساوةٍ مع أناسٍ آخرين، حيث ندينهم من تصرفهم الخارجي فقط، ونحن لا نعلم نيّاتهم الداخلية

ربما يكون أسلوب الأخوات القاسي نحوك ظاهرياً فقط وليس حقيقياً، ولربما يكون خداعاً شيطانياً، يريد الشيطان من خلاله أن يرمي فيما بينكن بذار زؤان العداوة، الأمر الذي لا تنتبهن إليه أنتن، بينما يقوم هو به بسهولة كبيرة. في بعض الأحيان يحدث هنا كما يحدث في النار، فكما أنَّ شعلةً صغيرةً، يمكنها أن توقد ناراً هائلة إذا لم نطفئها في الوقت المناسب؛ كذلك تستطيع شرارةٌ صغيرةٌ من الشك والقساوة، أن توقد نار العداوة التي تلتهم سنواتٍ كثيرةً من الجهاد والفضيلة

إذا كانت إحدى الأخوات حقاً، وبسبب ضعفها، لا تُظهر لكِ حُسن التصرّف الكافي، عندئذٍ وقبل أن ترمي عليها باللائمة، أُنظري إلى داخل قلبكِ وافحصي موقفكِ تجاهها. فلربما هذا الفحص الدقيق لذاتك بانتباه، يؤكّد لكِ أنكِ أنتِ التي

سبّبتِ تلك الحالة، وبالتالي أنتِ المخطئة في كل شيء

حاولي أن تقتني في قلبكِ سلاماً تجاه الجميع، بحسب قول الرسول: "إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس"(رو١٢:١٨)

أي أن الأمر يتعلّق بكم، لكي يكون لكم سلام مع جميع البشر

هذا السلام الداخلي في نفسكِ، يشكّل الضمانة الفضلى لكي يحبّكِ الآخرون ولكي يشعروا بالسلام معكِ، وطبعاً لا يوجد شيء أسمى وأثمن من المحبة، كما يؤكّد الرسول أيضاً، إذ يدعو المحبة "تمام الناموس" (رو١٣:٨) و"رباط الكمال" (كولوسي٣:١٤)، التي عندما تتوفّر "يحفظ سلام الله قلوبكم" (فيلبي٤:٧)

والمحبة معروفة جداً لدى القديس يوحنا الإنجيلي، الذي تدعوه الكنيسة المقدّسة رسول المحبة، والتلميذ الحبيب، وصديق المسيح الذي اتّكأ على صدره!

فكلُّ رسالته تتدفّق بالمحبة، محبة تدخل بمفردها، وتملأ قلب القارئ المتيقّظ، يقول: "وكلُّ من يحبُّ فقد ولد من الله ويعرف الله، ومن لا يحبُّ لم يعرف الله لأن الله محبّة" (١يو٤:٧)

"إن أحببنا بعضنا بعضاً يثبت الله فينا" (١يو٤:١٢). "فمَنْ ثبت في المحبة فقد ثبتَ في الله والله فيه" (١يو٤:١٦). "أما الذي لا يحبُّ أخاه... كيف يستطيع أن يحبَّ الله؟" (١يو٤:٢٠). "ولنا منه هذه الوصية مَنْ أحبَّ الله فليحبَّ أخاه أيضاً" (١يو٤:٢١). "بهذا قد عرفنا المحبة أنَّ ذاك (أي المسيح) وضع نفسه لأجلنا فنحن ينبغي لنا أن نضع نفوسنا لأجل الأخوة" (١يو٣:١٦)

أرأيتِ وفهمتِ إذاً سمو المحبة المسيحية؟ يجب أن نقدِّم حياتنا أيضاً من أجل إخوتنا البشر، أي أن نضحّي بحياتنا من أجلهم بلا تمييز، دون أن نتمسّك بموقف معادٍ، أو أن نتحفّظ تجاه أيٍّ كان، حتى لو واجهونا بالكره والإهانة، لأنَّ الرب قال: "أحبُّوا أعداءَكُم... أحسنوا إلى مبغضيكم... إذا أحببتم الذين يحبُّونكم فأيُّ أجرٍ لَكُم، أليس العشّارون أيضاً يفعلون هكذا؟" (مت٥:٤٤-٤٦)

يا لعمق المحبة المسيحية غير المدرك وغير المستقصى! مبارَكٌ مَنْ يستمتع بثمارِ أيتها المحبة،أنتِ شجرة الحياة في الفردوس، لأنكِ ستجعلينه غير مائتٍ ومغبوطاً إلى الأبد!

ويُذكَر أيضاً، في حياة القديس الرسول يوحنا الإنجيلي، أنه لمّا

أصبح شيخاً طاعناً في السن، لم يعد يستطيع الذهاب إلى اجتماع المؤمنين، فكان تلاميذه ينقلونه إلى هناك على أيديهم. وبما أنّ وضعه لم يكن يسمح له بالتعليم والوعظ، فقد كان يكرِّر فقط كلماته عن المحبة، والتي تتضمن الأساس الثابت للمسيحية "أيها الأولاد، أحبوا بعضكم بعضاً"

أكرر القول للمرة المائة، أحبِّي، أحبِّي، أحبِّي الجميع دون تمييز، الذين يحبونكِ والذين يكرهونكِ، وهؤلاء الآخرين أحبيهم أكثر، لأنـــهم قد يفتحون أمامكِ فرصةً لممارسة أعظم الفضائل المسيحية

لا تشكّي في أحدٍ أنّه يأخذ منك موقفاً مضاداً ما، حتى ولو رأيتِ ذلك بعينيك

كوني كمن لا يرى، لأنّ "العين الصالحة لا تـــرى الشر" و"المحبة لا تظنّ السوء"، أيَّ سوءٍ، مهما كان مصدره، بل "تحتمل كل شيء وتصبر... ولا تسقط" (١كو٨،٧،١٣:٥)

أي أنـــها تسامح في كلّ شيء، وتصبر على كلّ شيء، ولا تسقط أبداً، بل تستمر ثابتةً وأبدية

وإذا كان هذا الكلام يسري في أي مكانٍ، فكم بالأحرى سوف يسري في الدير، حيث نطبِّق هنا وصية المحبة بالخصوص

إنّ جميع أعضاء الشركة في الدير، يشكّلون بطريقة ما، عائلة طبيعية أو مجموعة، سواء بسبب التعبير للحياة الخارجية أو على الأخص بسبب الشوق المشترك، أي الهدف الواحد في إرضاء الله والتقدُّم في الكمال

إلاّ أنّه في الحقيقة، بالرغم من وحدة الهدف هذه، فكم من الخلافات أو التناقضات أيضاً، توجد فيما بين أعضاء الشركة الواحدة

إنّ الدير يفتح أحضـــانه، كأمٍّ حنون، لكلِّ مَنْ يلجأ إليه، وذلك بحسب قول الرب "مَنْ يُقبِل إليّ لا أُخرجه خارجاً" (يو٦:٣٧)

فالمتعلمون والجهّال، النبلاء والمسِـــنّون، الأقوياء والضعفاء، وكذلك العاجزون، كلُّهم يجدون الدير ملجأً لهم. ويختلف نموهم الروحي الداخلي، وكذلك آراؤهم وانطباعاتـــهم ودوافعهم، بحسب اختلاف أوضاعهم الخارجية، لأنـــهم طبعاً لم يأتوا جميعاً إلى الدير للسبب نفسه

وطالما أنّ الأمور تجري هكذا، فمن الطبيعي أن يتوقـــع المرء ألاّ يحقق الجميع التقدّم والتحسن بالمقدار نفسه، لأن الله لا يوزّع الوزنات بالتساوي، بل "كلٌّ واحدٍ على قدر طاقته" (متى٢٥:١٥)

فالبعض أعطاهم وزنة واحدة، وآخرين وزنتين، كما أعطى

غيرهم خمس وزنات. ولكن انتبهي، فالذي أخذ الوزنتين وضاعفهما بعمله، قد حصل على المديح والمكافأة نفسها اللذين حصل عليهما الذي أخذ الخمس وزنات وضاعفها هو أيضاً. ولكليهما قال الرب: "نعمّا أيُّها العبد الصَّالح والأمين... أُدخل إلى فرح سيّدك" (متى٢٥: ٢١-٢٣)

لم يطلب الرب عشرة وزنات من الذي أخذ وزنتين فقط، بل كما وزّع الوزنات بحسب قدرة كلٍّ واحد منهم، هكذا ارتضى منهم بحسب ما استطاعوا الحصول عليه

أما نحن فمثل القســـاة العديمي الرحمة، نطلب من الآخرين وباستمرار، ما لا يمكننا نحن أنفسنا أن نفعله. ومما لا شكَّ فيه أننا لو كنّا مكانـــهم لما فعلناه أصلاً

لذلك، فالتقويم ينبغي أن تطلبيه من نفسكِ أولاً، وعندما تحقّقينه بمعونة ونعمة الله وبحسب قدرتكِ، عندئذٍ وبالتأكيد، سوف ترين الآخرين أيضاً وخاصةً أخواتكِ، أنـــهنّ ذوات عطفٍ تجاهكِ، صالحات وحسنات. "أخرج أوَّلاً الخشبة من عينيك وحينئذٍ تبصر جيّداً أن تُخرِج القذى من عين أخيكَ" (متى٧: ٥)

الرسالة السادسة

واجبات المرتلات

ملعون مَن يعمل عمل الرب بتوانٍ

(أرميا ٤٨: ١٠)

بدأتِ الآن ترتلين مع الجوقـــة وتسبِّحين الرب على مثال الطغمات الملائكية، الذين يرفعون التسابيح بدون انقطاع لتمجيد ربِّهم وخالقهم

بالحقيقة كم أنتِ محظوظة! ولكن هل تدركين مدى قدسية وأهمية هذا العمل المرضي لله، الذي يستحق أن يدعى إلهياً أكثر من أيِّ عمل آخر؟

إذا كنتِ لا تدركين ذلك، فلا بد أن أذكّركِ بكلمات النبي التهديديـــة والرهيبة: "ملعونٌ مَـــنْ يعمل عمل الرب بتوانٍ" (أرميا٤٨: ١٠)

أترين المسؤولية الهائلة، التي يحملها أولئك الذين يقومون بعمل خدمة الربِّ بدون انتباه، وما الجواب الذي سيقدمونه؟

إن المرتّل أو المرتّلة هو فم كنيسة الشعب، أي المؤمنين الذين يأتون إلى الكنيسة من أجل الصلاة. فهو عندما يرتّل التسابيح والتضرّعات، لا يعبِّر عمّا في نفسه فقط، بل عما في نفوس جميع الحاضرين في الكنيسة

إذاً، كما يصلّي المؤمنون بواسطة أفواه المرتّلين، هكذا هؤلاء يصبحون بدورهم "فم الكنيسة". وتدعوهم الكنيسة المقدّسة وتقول لهم: "رتّلوا لإلهنا"، ولكن أيضاً "رتّلوا بفهمٍ" (مز٤٦:٧-٨)

إذاً، فكّري، وانتبهي جيداً! من أجل مَنْ ترتّلين؟ أمام مَنْ تصلّين؟ أمام مَنْ تقفين؟

إنكِ تقفين أمام مَنْ تجتمع حوله طغمات الملائكة متطايرةً بخوفٍ، مغطيةً وجوهها!

تسبّحين مَنْ ترفع له جميع القوات السماوية، وبدون انقطاع، التسبيح المثلّث تقديسه "قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت". فكّري كم هو عظيمٌ عمل المرتّل، وتعجّبي من رحمة الله الذي يسمح لخطأة الأرض أيضاً أن يسبّحوه. فمثل هذا العمل المقدّس هو عمل الملائكة لا البشر "ذوي الشفاه الدنسة"، كما قال أشعياء النبي عندما سمع ترنيماً سماوياً: "ويلٌ لي إنّي هلكتُ لأنّي إنسان نجسُ الشَّفتين وأنا ساكن بين شعبٍ نجس الشَّفتين" (أش٦:٥)، وأنتِ الضعيفة

والمريضة والخاطئة، يوكل إليكِ هذا العمل!

عليكِ أن تضاعفي هذه الوزنة التي ائتمنكِ الله عليها، أن تضاعفيها بحكمة، وأن تقولي لنفسكِ بكلّ تواضع وخوف الله: "يا نفسي، هاهي الوزنة التي ائتمنكِ الله عليها، فاقبلي الموهبة بخوفٍ"، و"يا نفسي، إذ قد سمعتِ بمحاكمة الذي طمر الوزنة، فلا تُخفي قول الله، بل أذيعي عجائبه لكيما تضاعفي الموهبة وتدخلي إلى فرح ربكِ"[1]

"لا يتباطأ الرَّبُّ عن وعده" (٢بط٣:٩)، أي أنَّ الربَّ لا يتأخر عن تحقيق وعده، بأنه سيأتي ويطلب حساباً من عبيده الذين ائتمنهم على خيراته، أي مواهبه وعطاياه التي منحها لكلّ واحد

إذاً، إنتبهي أنتِ أيضاً، فقد تسمعين ذاك الحكم الرهيب: "خذوا منه الوزنة"، لأنه لم يشأ أن يعمل بها بجدٍّ لكي تتضاعف، و"العبد البطّال اطرحوه إلى الظُّلمة الخارجيَّة" (مت٢٥:٢٨-٣٠)

إنّ الجهاد العظيم الذي يقوم به المرتّل، يكمن في تكريس كلّ طاقاته التي منحه الله إياها، وبدون انقطاع، لتمجيد الله. فعن طريق هذه الموهبة، رتّلي من أجل مجد اسم الله، رتّلي ليس فقط بالصوت

---

[1] ترد هذه الترتيلة في كتاب التريودي، فترة الأسبوع العظيم المقدس، صلاة الختن من سحر الثلاثاء (ذوكصا الإينوس)

والشفاه، بل بشكل خاص بالذهن والإرادة والرغبة والغيرة، بكل كيانكِ. هذا ما يعنيه القول "رتِّلوا بفهم"

إن الترتيل يخترق قلوب المصلّين، فإذا كان يخرج من قلب المرتِّل فهو سيدخل إلى قلوب السامعين، وعندئذٍ يصير دافعاً للصلاة والتخشُّع، حتى في القلوب القاسية والمشتّتة

يحدث أحياناً، أنّه يدخل إلى الكنيسة أناسٌ ليس لديهم شوقٌ للصلاة، يدخلون اضطرارياً أو احتراماً، ولكنهم بعد سماعهم التراتيل، يبدأون بالصلاة بحرارة ودموع، وهكذا يخرجون من الكنيسة في حالة مختلفة كلّياً، بروح التخشُّع والتوبة. يتم هذا التجدّد داخلهم بسبب الترتيل الجميل والخدمة العجيبة كما يحدث العكس أيضاً، إذ إن أولئك الذين يدخلون الكنيسة من أجل الصلاة، لكي يسكبوا نفوسهم الحزينة أمام الرب، يحصل أحياناً كثيرة، أنـــهم ـ بيبب سوء الترتيل والقراءة ـ يتضرّرون بدل أن يستفيدوا، ولا يجدون تعزية، فيسقطون بدون إرادتهم في الإدانة، بسبب التجربة الناجمة عن سلوك المرتلين

يقول الرب عن الذين يعرِّضون الآخرين للتجربة: "ويل للّذي تأتي بواسطته العثرات. خير له لو طوّق عنقه بحجر رحىً وطُرِح في البحر" (متى ١٨ : ٦ – ٧) و(لو ١٧ : ١ – ٢)

فإذا كان حكم الله شديداً لهذه الدرجة على أيٍّ مؤمنٍ "طوبى لمن لا يَعثُر فيَّ" (متى١١:٦)، فكم يا ترى ستكون العقوبة أشد هولاً على المرتِّلين والمرتِّلات. وبشكل عام على كلِّ مَنْ ينتمي إلى الإكلـــيروس، نتيجة مـــا تسببه مواقفهم من العثرات للمؤمنين في الوقت الذي كان يجدر بـــهم أن يكـــونـــوا مثالاً صالحـــاً غير ناسين مرتبتهم

إذاً، عليكِ أن تخافي وتنتبهي، فلربما وأنتِ في الجوقة ترتّلين ظاهرياً، لا من القلب، وبتشتّت، فتسكبين سمّ التجربة في قلوب المصلّين، وبالتالي تنالين عقوبة صانعي العثرات

إنتبهي من "القيام بعمل الرب بتهاون"، لكي لا تلحقك اللعنة من جراء ذلك

حاولي بكلّ قدرتكِ، أن تركّزي وتنتبهي إلى معاني القطع التي ترتلينها والمكتوبة في كتب الخدمة، ورتِّليها من أعماق قلبكِ لا من شفتيكِ فقط، وعندئذٍ سينسكب صدى تيار تسابيحكِ الحي في قلوب المؤمنين، فترتفع نفوسهم من الأرضيات إلى السماويات، ويغادرون الاهتمامات الأرضية، مقتبلين ربَّ المجد الذي تحمله الطغمات الملائكية كغالب

هل ستصدّقين إذا قلت لك شيئاً من روايات الآباء القديسين،

حول أن الترتيل الجميل والخشوعي، لا يغيِّر فقط نفوس البشر وحَسْب، بل ويجعل الحيوانات أيضاً، تلك المخلوقات غير الناطقة، تركع بدافع الغريزة

هل حدث وقرأتِ مرة ما حياة الراهب الآثوسي البار يوحنا كوكوزيللي (سنكسار ١ت٢)؟ هذا عندما دخل إلى أحد أديار جبل آثوس ، في اللافرا الكبرى، أخفى أمر كونه ذا شأنٍ عظيمٍ في البلاط الإمبراطوري، وادّعى أنه راعٍ بسيط،، ولذلك أرسلوه لرعاية قطعان الدير

وفي إحدى المرات، بينما كان يرعى قطيعه، شرع يرتِّل بعض الأناشيد التي كان يرتّلها سابقاً في الجوقة الإمبراطورية، وسكب يوحنا كلّ نفسه أثناء الترتيل، إذ كان مطمئناً أنَّ لا أحد يستطيع سماعه وهو في البرية وحده. فحدث أن الحيوانات التي كانت ترعى، تركت مرعاها، واجتمعت حوله، محدّقة فيه مأخوذة بترتيله الملائكي

إذاً، هذا هو الترتيل الروحي العميق، الذي ينبعث من أعماق النفس والذهن. إنه قادر ليس فقط على أن يُلهب النفوس الناطقة ويسمو بها نحو الخالق وحسب، بل وأن يمسّ ويحرّك أيضاً تلك الحيوانات غير الناطقة

وقد سمع راعٍ آخر هذا الترتيل العظيم وهو يعبر بالقرب من

ذلك المكان، فنقل الخبر إلى الدير، وكان سبباً لاكتشاف حقيقة يوحنا

مرة أخرى، في سبت المديح، كان يوحنا يرتّل قانون والدة الإله مع بعض المرتّلين في جوقة اليمين، وبسبب تعبه الشديد، خطفه نومٌ خفيفٌ وهو جالس في مقعده، وفجأةً أيقظه صوتٌ لطيفٌ عذبٌ يقول له: "إفرح يا ابني يوحنا ". فوقف بسرعة ورأى أمامه السيدة العذراء واقفةً، وحولها نورٌ سماويٌ مشعٌّ، وقالت له: "رتِّل لي وأنا لن أتخلّى عنك"، وأعطته في يده قطعة نقدية ذهبية، ثم اختفت

أترين إذاً عظمة الكرامة التي يستأهلها المرتّلون الغيورون، حتى في هذه الحياة أيضاً؟ لأنهم لا يرتّلون بالشفاه فقط، بل وبنفوسهم وأذهانهم، للربّ ولأمّه الفائقة الطهر

آه، كيف سننجو من حكم الله العادل، ونحن في هذا التهاون والضجر والكسل، لأننا بذلك نجعل هدايا الله الثمينة وكأنّها ملكٌ لنا، ونتصرّف بها كما نشاء ومتى نشاء، بحسب إرادتنا الشريرة وعاداتنا الخاطئة

فكم هي عظيمةٌ موهبة الصوت الجميل والقدرة على الترتيل، التي أُعطيت لنا، لكي نمجّد الله بها ونجذب الآخرين إلى تمجيده. ولكن كم من المرات نجعلها ضرراً لنفوسنا، بتكبُّرنا واحتقارنا

للآخرين الذين لا يملكونـــها، وبكوننا لا نسرع إلى استخدامها من أجل مجد الله، لا بل وأكثر من ذلك أنه عندما نستخدمها، لا نقوم بـــها كما ينبغي وكما يليق بعِظم هذه المواهب

"فليُعطكِ الرَّبُّ فهماً" (٢تيمو٢:٧)، لكي تدركـــي سمو دعوتـــكِ إلى كرامـــة المرتّلـــة، في جوقـــة الملك السماوي. فقدّمي وزنتكِ إذاً ذبيحةً للذي منحكِ إياها، لأنه "أيُّ شيءٍ لك لم تأخُذْهُ" (١كو٤:٧)

ألم تُعطى لنا المواهب والمقدرات من الله الواهب الخيرات؟ ويا تُرى ألن يطلب منا حساباً كيف استخدمناها؟

والآن، بمـــا أنكِ قـــد حصلتِ على مقعدٍ ضمن الجوقة، فقبل كلّ شيء ارسمي إشارة الصليب، وتذكّري أنكِ تقفين أمام ملك المجد غير المنظور، والذي تمجّده الطغمات السماوية بلا انقطاع، الآن وكل أوان، وأنه ينبغي أن يتّحد صوتكِ الضعيف والهزيل الأهمية، مع هذا التسبيح السماوي

عليكِ أن ترجعي إلى ذاتكِ وتقولي لجميع قوى نفسكِ، الذهن والفكر والقلب والإرادة والغيرة، وغيرها: "هلموا لنسجد ونركع للمسيح"، "هلموا نبكي أمام الرب مبدعنا"

والربُّ سيحفظ حركات قلبكِ إذا ما كانت حسنة النيّة،

وسيُرسل لكِ نعمته ويجدِّد قواكِ، وعند ذلك سيصعد ترتيلكِ أمام منبره كرائحة البخور

ومن أجـــل ثباتكِ وتعزيتكِ، تذكري كـــلام العذراء العذب، للقديس يوحنا كوكوزيللي المرتّـــل العجيب: "رتّـــل لي وأنـــا لن أتخلّى عنك"، وثقي أنّ العذراء لن تتخلّى عنكِ في هـــذه الحياة الصعبة، كما وأنـــها لن تنساكِ في الغبطة الأبديـــة، حيث "تؤهّل المنشدين تسابيحها لأكاليل المجد والشرف"

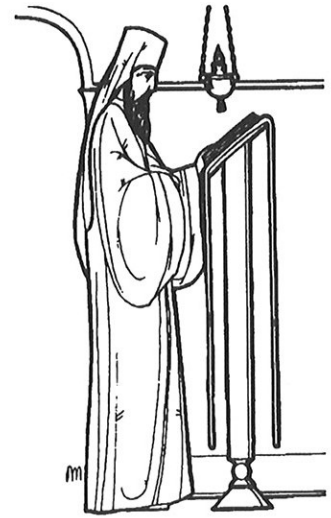

الرسالة السابعة

حول المبالغة في اللباس والزينة لدى المتوحدات

لا تفتخر بالثياب التي ترتديها . . . والحامد الذكر لبس التاج
(حكمة سيراخ ١١: ٤-٥)

أظنّ أنني قد تكلّمت في رسالتي الأخيرة عن سمو خدمة المرتّلة. وكلُّ ما قلته لكِ يستند إلى الكتاب المقدّس، وتوجيهات الآباء القديسين. وكذلك قدَّمتُ لك نماذج من حياة الذين جاهدوا في هذه الخدمة، وهكذا أرضوا الله

أريد أن أخبركِ الآن، عن ضعفٍ رهيبٍ يتّصف به أغلب المرتّلون، وبشكل خاص المرتّلات، يدخل هذا الضعف في البداية متخفياً في قلوبهم، ويستقر هناك بدون انتباههم، وبواسطة ادّعاءٍ محقٍ ظاهرياً وهو اللياقة والترتيب

وبعد أن يتمكّن جيداً، يتحوّل إلى سيدٍ على إرادتهم، ويوجّههم للانتباه إلى اللباس والإعجاب به

تسقط الراهبة الشابة غير المختبِرة بسهولة في هذا الفخ، الذي يمسك بـــها بفنٍ ضمن شباكه. وعيناها العقليتان اللتان لم تستنيرا بنور الحكمة الروحية بعد، لا تستطيعانِ تمييز عمق الخطيئة التي يجرّها الشيطان إليها، ولا تستطيع حتى الارتياب بـــها، وقد تـــهلك إلى الأبد طالما أنَّ شباك العدو قابضة عليها

ينبغي أن أعترف أنني إذ أبدأ بالكتابة لكِ عن هذا الموضوع، أشعر بالارتباك نوعاً ما، أخجل من أن أبدأ، لأنّني أفكّر: "إلى مَنْ أكتب؟ ومن أجل أي شيءٍ أكتب؟

أأكتب إلى عروسٍ للمسيح، إلى راهبة تخلّت عن العالم وفضّلت عدم القنية بإرادتـــها؟ أأكتب لها عن الرفاهية في اللباس وعن الزينة والمظهر الخارجي! كم من التناقض والتعارض بين هذين الأمرين!"

ولكن الويل للرهبنة الحالية، لقد أصبح هذا الضعف كبيراً فيها لـــدرجـــة أنـــه يُعتبر خطيئة. إني أحذّركِ، ولكي تفهمي بشكل أفضل وأسهل، سأتكلم معكِ بالترتيب، أولاً كيف تولد هـــذه الخطيئة، ثم كيف تتقوى وتتجذّر في النفس، وأخيراً ما هي نتائجها المؤذية. إرتدت الراهبة الشابة اللباس الرهباني المكوّن من رداءٍ أسودٍ وحزامٍ وغطاءٍ للرأس، دخلت إلى الشركة الرهبانية، وصارت بذلك

"أختاً" لبقية الأخوات، هذا بالنسبة لمظهرها الخارجي

وبما أنه من المستحيل تأمين اللباس الموحّـــد الشكل في الأديار النسائية، وذلك بسبب كثرة عددهن الذي يتجاوز غالباً الثلاثمائة والأربعمائة راهبة، لذلك يترك أمر اللباس إلى تمييز كلِّ أختٍ وإمكانيتها التدبيرية لوحدها. ويحدث أحياناً أن إحدى الراهبات الصغيرات، ترى رداء بعض الأخوات الأخريات أفضل من ردائها بشكل واضح، فتبدأ بالمنافسة التافهة، وتضع في رأسها فكرة أن تقتني هي أيضاً رداءً شبيهاً أو أفضل، فإذا كانت لديها الإمكانية التدبيرية، ستحقق مأربـــها بسهولة؛ أما إذا لم تكن لديها الإمكانية ، لأنـــها تربح من عمل يديها ما تحتاجه فقط لتأمين عيشها اليومي[1]، فإنـــها سوف تضاعف عندئذ محاولتها، وتكرّس كل وقتها ـ خارج أوقات العمل ـ لكي تربح المزيد من عملها وتجمع الأموال، وتحقق ما خطّطت له بأسرع وقت

وأيضاً، غالباً ما لا يكفيها وقتها الخاص (وقت فراغها)، كونـــها تضحّي بساعات راحتها ونومها لكي تحصل على مبتغاها، فتسرق حينئذ ساعةً من وقت الأعمال العامة، حيث تتأخر عن الذهاب وتغادر قبل الوقت، لكي تذهب إلى قلايتها وتعمل أكثر.

[1] يحصل ذلك في الأديرة التي لا تخضع لنظام (الشركة)

ولكي أشرح المزيد، فإنـــها تـــهمل قانونـــها أيضاً، وتذهب إلى النوم دون أن تقوم حتى بصلاة واحدة، لأنـــها تعمل بإصرار أكثر عدد ممكن من الساعات، فتسقط على السرير مباشرة بعد أن خارت قواها وتعبت عيناها

كم من الخطيئة في هذا الأمر! قوى فتية لإنسانة شابة، قدَّمتها الراهبة ذبيحة لحياة مرضية لله، تُهدر قبل أوانـــها وتضيع من أجل مجدٍ فارغ! يا للتفاهة ويا للإفراط! فالصلاة التي هي غذاء ضروري للنفس يتمُّ إهمالهـــا. وبالتالي، فإن النفس التعيسة العطشى اليوم وغداً وبعد غد، تبقى صائمة وقاسية، وتخسر تخشُّعها وحرارتـــها الداخلية، لأن الروح القدس الذي يهبها هذه الحرارة، يُهان نتيجة إهمالها وكسلها، وينسحب منها ويتخلى عنها، وعندئذ تشعر النفس بالفراغ شيئاً فشيئاً، وتموت برجائها الكاذب لإقتناء صلاحٍ ما في خيالها، سيكون سبباً لإدانتها عند الموت. وحتى ولو حصلت على ما تتوق إليه من "الصلاح" الذي أضاعت من أجله كلّ هذا الوقت الثمين، فراهبتنا هذه ترتدي ثيابـــها الجديدة وأفضل ما عندها، وتُظهر ذاتـــها فيما بين منافساتـــها، فماذا إذاً؟ هل أصبحت بذلك أفضل مما كانت عليه؟ أو أن رئيساتـــها وجميع الراهبات سوف ينظرن إليها بعين أفضل؟ طبعاً لا. إن ما يرونه فيها هو صغر النفس وقلة العقل، وهذا لا يليق بالراهبة

إلا أنه، ويا للأسف، يوجد احتمال أن تتضرر تلك الأخوات من نموذجها، فيخطر ببالهن أن يقلِّدنـــها، وعندئذ "الويل" "ويل لذلك الإنسان الَّذي به تأتي العثرة" (متى ١٨:٧) حسب قول الإنجيلي

أما إذا كانت تتسلّل إلى داخل نفس الشابة -وبتأثير من العدو- الرغبة في جذب انتباه الغرباء، أو لكي أتكلّم بشكـــل أوضح، لفتِ انتباه شخصٍ معيَّن، فاحكمي بنفسك عندئذ كم هي كبيرة تلك الخطيئة المرتكَبة في الفكر، وكم هو عظيمٌ هذا الإثم لأنَّ نفسها هكذا، تصير بصورة ما، خائنة للمسيح الختن السماوي. ولن تليق بـــها إلاَّ كلمات ذلك الأب العظيم الذي نسك في البرية، والذي صادف مرةً ما "خروفاً ضائعاً"، فقال بيأس:"يا أيها المسيح الختن الفائق الطهر، ما الشيء الذي لم يكن حسناً كفاية في أزليتك، حتى إنك ارتضيت أن تصير شبيهاً بالمائتين الأرضيين"

إنَّ الثياب المرفَّهة، والزينة لدى الفتاة (وعلى الأكثر لدى الراهبة)، تدلّ على غرورها وعدم طهارة قلبها، ويمكن أن تسبّب للآخرين أفكاراً دنسة

تدّعين أنك غنية، ولكن ما يليق بالراهبة هو الغنى الروحي. فالنفس التقية تحتقر الغنى الفاني والملابس المرفهة التي تزيّن الزواني

عادة. فانظري إذاً، إلى أية خطايا كبيرة تقودك هذه الإنحرافات الصغيرة باستمرار، والتي تسمينها ببساطة هفوات

لقد كتبت لك سابقاً، وأعود وأكرر للمرة الثانية ،أن العدو يدفعنا لارتكاب الخطيئة، شيئاً فشيئاً ودون أن نشعر، وذلك لكـــي لا نحسَّ بفخاخه، فنحاربه ونتجنّبه

وإحدى الحجج التي يستخدمها الشيطان ليجرِّبنا بـــها هي المظهر الخارجي الحسن، وهو يستخدمها بحذاقة، وبالتالي، يجب أن نتحفظ وأن نكون حكيمات في كلّ تصرفاتنا، وألا نتجاهل أو نتهاون حتى في الحوادث العديمة الأهمية في حياتنا الداخلية، ولا في الأفكار الخفية جداً في أذهاننا

إن الثياب المرفّهة والمزّينة، لا تليق ليس بالراهبات فقط، بل ولا بالنساء الورعات العائشات في العالم أيضاً، واللواتي ينصحهنَّ القديس بطرس الرسول بأن يتزيَّن "ولا تكن زينتكنَّ الزّينة الخارجيَّة من ضفر الشَّعر والتَّحلّي بالذهب وَلبس الثياب بل إنسان القلب الخفيَّ في العديمة الفساد زينة الروح الوديع الهادي الذي هو قدَّام الله كثير الثّمن" (١بط٣:٣-٤). أي لا يزيِّنَ جسدهن بالثياب والتمشيط، بل أن يزيِّن إنســانـــهنّ الداخلي بروح الوداعة والهدوء الذي لا يفنى، لأن هذا هو الرفاه الحقيقي في عينيّ الربّ

ولنتعلّم الآن ما هو رأي الآباء القديســين في هذا الشأن، كيف ينبغي أن يكون لباس الراهب والراهبة؟

يقول الآباء:"ينبغي أن يرتدي الراهب لباساً، بحيث أنّه لو تركه في مكانٍ ما، لا يفكّر بأخذه أيُّ إنسان، من جراء تلفه وعدم صلاحيته"

آه، كم نحن بعيدون عن هذه الحالة المباركة، وكم يوجد في داخلنا من صغر النفس والتعاسة. لقد تركنا العالم، وهاهو سور الدير الحجري يفصلنا عنه، إلا أن العالم بكل فساده المغري، لا يعيش في نفوسنا وحسب، بل ويحدّنا أيضاً

نحن لم نتجاوزه، بل هو يتجاوزنا في كلّ منعطف. نحن لم نضحك عليه بل هو يسخر منا، يسخر من طمعنا وصغرنا، كما يوبخنا أيضاً عن طريق ناموسه

آه، كم من الأمثلة الكثيرة التي أستطيع أن أجلبها لكِ حول هذا الموضوع، من كتابات الآباء، ولكن كونه يمكنك أنت أن تقرأيذلك، سوف أقصُّ عليك أنا حادثة ، وتظهر كيف يرى العلمانيون الحكماء الثياب الرهبانية، وكيف ينبغي أن تراه الراهبات الورعات اللواتي يلبين دعوتـــهن بحكمةٍ وتمييز

كان لدى الدير الذي قررت الانتساب إليه في بدء حياتي

الرهبانية، نظامٌ يفرض على جميع المرّتلات. أن يركعن أمام الأم الرئيسة لأخذ البركة قبل ذهابهن إلى الجوقة وبما أنه كان على الأم الرئيسة أن تنحني أمام كلٍّ راهبة على حدة، فحرصاً على عدم إزعاجها، كنّا ننتظرها بجانب مدخل الكنيسة تحت قوس الباب، لكي نجتمع ونتوجه إليها كل اثنتين أو ثلاثة معاً في كلِّ مرة

وفي إحدى الأعياد، اجتمعنا، ومن أجل العيد كنا نرتدي جميعنا ثياباً جيدة، أي أفضل ما عندنا من ثياب، ونحمل بأيدينا مسابح جميلة، (وفي الحقيقة كم خدعتنا هذه المسابح، إذ كانت تبدو كما لو لم نستخدمها بحسب المفروض، أي في الصلاة)

وفي المكان نفسه تحت قوس الكنيسة،كانت تقف عجوزٌ علمانية تنظر إلينا بصمتٍ، وعلى ما يبدو أنها لم تكن مرتاحة لزينتنا الزائدة، (والتي لا تزيّن الراهب في نظر المسيحي التقي بل تبشّعه).ونادتنا بصوت حزين ومتذمّر:" آخ أيتها الأمهات الحبيبات! لقد تركتنَّ الزبالة لكي تتنافسن على الخرقات! إجمعن أنفسكن وعندئذ لن تعثّرن العالم"

وإنّي لن أنسى أبداً، مدى حياتي، هذه الكلمات التي اعتبرتها موجَّهة لي أنا أيضاً، رغم أنها في الحقيقة لا تنطبق عليّ، لأنني من اللحظة الأولى لدخولي في الرهبنة، سلّمت بإرادتي كلَّ ما

لدي للدير، واتبعتُ البساطة في المظهر دائماً، ولربما كانت ملابسي سبب تجربة للبعض بسبب بشاعتها لا أناقتها. ولكن بالرغم من ذلك، فإنني عندما سمعت هذا الدرس اللاذع من شفتي تلك السيدة العلمانية، طبعته عميقاً في عقلي، وتقوّى عزمي أكثر على عدم الإعتناء بمظهري، والذي من أجله كانت الأخوات يتَّهِمْنَني باستمرار ويسخرن مني

وأنتِ أيضاً، عليك أن تتذكري هذا الدرس الحكيم باستمرار، وألا تستخفي به، لأنه أُعلِن لنا بواسطة إنسانة علمانية ليست أهلاً لأن تعلّم وترشد راهبات، بما أنها لا تعرف تفاصيل حياتهن وقساوتها

إلا أنها تعلم، كما ذكرت، أن الواجب الأساسي للمتوحدات هو اللاقنية، الذي يلغي كلَّ مبالغةٍ في كافة أشكالها. والربُّ يعلّمنا بكافة الطرق الممكنة، ويستخدم دوماً وسائل قليلة الأهمية من أجل تحقيق خلاصنا

فكوننا لا نسمع كلام آبائنا الروحيين ومعلّمينا، ولا ننتبه عندما نقرأ كتب الآباء، فإنَّ الربَّ يعلّمنا بواسطة أولئك الذين هم في نظرنا أقل شأناً منا، وذلك لكي نتواضع ويظهر خزي وجوهنا

حقاً، كيف يمكن ألا يرى المرء كلَّ هذا ؟ كيف يمكن ألا

يخيفنا عارنا الداخلي، إذا ما نظرنا عميقاً وبشكل موضوعي إلى إنساننا الداخلي وإلى نفوسنا، دون محاولة تبرير لها؟

كم نجد من التناقض بين ما نبذله من الجهود والأتعاب، وما نتحمّله من العذابات، وما نكرّسه من الإنتباه على جسدنا، وبين الإهتمام الضئيل الذي نبديه من أجل نفوسنا؟ مع أننا نعلم جيداً أنّ الجسد، مهما اعتنينا به، سيأتي وقت يصير فيه طعاماً للدود في القبر، وسيكون مصيره الفساد"لأنّك ترابٌ وإلى ترابٍ تعود" (تك٣:١٩)

وبالعكس، فالنفس هي كالروح، لا تموت، لأنها من الخالق الذي لا يموت. وهي معنية لترث الملكوت والغبطة الأبدية إن كانت صالحة، وبالعكس لترث العذاب الأبدي، وذلك بحسب الطريقة التي عاشت بها على الأرض

إذاً، أليس من الأفضل الاهتمام بالنفس أكثر من الجسد، أو كما ترتّل كنيستنا المقدّسة "أن يُتغاضى عن الجسد لأنه يزول ويُهتم بأمور النفس غير المائتة" ؟!

فليمنحنا الله القوة لنقوم بذلك

الرسالة الثامنة

حول الاهتمامات الزائدة وغير اللائقة بالروح الرهبانية

اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّهَ وهذه كلُّها تزاد لكم

(متى٦:٣٣)

لقد سبق وقلتُ لكِ ما يكفي عن الخطيئة وعن المجد الباطل لدى الراهبة ،وعمّا يتعلّق بالتزيّن الخارجي و اللباس عامة. وأودُّ أن أتكلم الآن قليلاً حول الموضوع ذاته، ولكن فيما يتعلق بتزيين القلاية الرهبانية وكثرة الطعام والشراب.فهذه كلُّها لا تخدم التقدم الروحي، بل على العكس. تدفع الإنسان الجسدي إلى تمتُّعاتٍ حسيّة

إن الأمور الزائدة، هي تلك التي لا تهدف إلى تغطية الحاجات الضرورية للحياة وحسب، بل وتستعمل أيضاً لإرضاء هوى الرفاهية. فإذا كان اقتناء الأمور الزائدة، لدى أهل العالم، يُعتبر أمراً غير حكيم؛ فكم بالأحرى لدى الرهبان، الذين بدعوتهم

تخلُّوا ليس فقط عن هذه الأمور الزائدة، بل وعن الضروريات أيضا،لكي يستطيعوا أن يقولوا مع الرسول: "ها نحن قد تركنا كلَّ شيءٍ وتبعناك" (لو١٨:٢٨). من المستحيل أن تخدمي الله ومجدَكِ الباطل في آنٍ واحد، كما يقول الربّ: "لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين " (متى٦:٢٤). وإذا ما حدث ذلك، فمن الضروري أن تتخلي عن أحدهما "إما أن يبغض الواحد ويحبَّ الآخر"

إذ كيف تستطيعين أن تقدمي لله كلَّ نفسك، في الوقت الذي لا يزال فيه حبُّك للعالم ومجدك الباطل، متجذّراً في قلبك؟ وكيف تبغين "الحاجة إلى واحد" ألا وهو خلاص نفسك،وأنت لا تزالين "تهتمِّين بأمور كثيرة" (لو١٠:٤١) ليست بذات أهمية، بل غريبة عن قلوب الذين يحبون المسيح وحده فقط؟. وما الذي يجذب إعجابكِ أيتها الراهبة الفقيرة، أهو الجمال الكائن في بعض أثاث القلاية الفارغ من أيِّ محتوى؟

إنَّ كلَّ هذه الأمور تجذب انتباهكن، وتفصلكن عن الاهتمام بتزيين خدر النفس الداخلي، الذي ينبغي أن يكون مسكناً حقيقياً للعريس السماوي

ألا تعلمن وتفكرن بأن هذا الختن، الذي يتمنى أن تتحد نفوسكن معه ـ ولهذا السبب دعاكنَّ إلى مصاف الرهبان ـ يقف دوماً

خارج باب نفوسكن، مشتاقاً لزيارتكن والسكنى معكن، كما يقول لنا في رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي: "هاأنذا واقف على الباب وأقرع إن سمع أحدٌ صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي" (رؤ٣:٢٠). إذاً ، عندما تهملين والأمور العالمية التي تجذب كلَّ انتباهكِ، عندئذ ستسمعين الربّ بشكلٍ أفضل عندما يقرع باب قلبك

ولكن، كيف سوف تسمعينه وأنتِ مشغولةٌ بأمورٍ تافهة؟ يا ترى، ألن ينجرح بسبب إهمالك، فيصرف وجهه عنك ويرحل عن باب قلبكِ الذي بقي مغلقاً أمامه، وقد يقول لك كلمات الدينونة الرهيبة تلك: "هُوَذَا بيتكُم يُترَك لكم خراباً... لا ترونني فيما بعد" (متى٢٣:٣٨-٣٩)

فليحفظكِ الربُّ أيتها الأخت من نتائج صغر النفس والمجد الباطل الهدّامة، تلك غير اللائقة بهويَّتكِ: "لا تكونوا أولاداً في أذهانكم بل كونوا أولاداً في الشرِّ" (١كو١٤:٢٠)

لا تبِّررن أنفسكن بقولكن، إنَّ صِغَرَ نفوسكن هذا كلّه، هو براءةٌ واستمتاعٌ شبابيٌّ غير خاطئ. وأستطيع أن أقول لكنَّ مباشرةً إن هذا التفكير خطيئة هو، ليس فقط كونه غير موافقٍ لفكرة الرهبنة، بل ولأنه يقطع تفكيرنا عن الله بشكلٍ عام. فهل تستطيع عيناك

العقليتان، يا ترى، أن تميّزا النور الإلهي، عندما تُحجَبان بغطاء العالم والتشتّت؟ وكما أن القلب الصغير لا يستطيع أن يحسَّن بالمشاعر العميقة، هكذا الأفكار السامية لا تستطيع أن تسكن في شخص ذي عقليةٍ عالمية. إنّ قلاية الراهب أو الراهبة هي مكان جهاداته الخاصة وصلواته وأصوامهِ وسهرانياتهِ الخ...

ولقد كان الرهبان القدماء يصنعون قلاليهم عادةً في ثقوب ومغاور الجبال، محرومين ومتضايقين... كما يقول بولس الرسول (عب١١:٣٧-٣٨)

أما اليوم، فإن الرهبان غير راضين بقلاليهم، رغم أنها في وضع أفضل بكثير. كما أنهم يسعون أيضاً إلى تغيير أشكالها الداخلية لكي تصبح غرفاً جميلة لا قلالي ، وبالتالي يفتحون للتجربة مجالاً، بدل أن يعملوا ما يسهّل تقدمهم الروحي

عندما يدخل المرء إلى قلاية راهبة، يتوقع أن يراها مرتَّبة بشكلٍ رهباني، أي بأيقونات مقدَّسة، وكتب وأثاث بسيط. و لكن، يلاحظ أحياناً بدلاً من ذلك تزيينات وأثاثاً بعيداً جداً عن نمط الدير المتواضع، أي يراها فخمة، يرى مقاعد مريحة ولينة، لوحات مرسومة، مرآة.... وبشكل عام، يرى كل ما يمكن للمرء أن يراه عادةً في البيوت العالمية

فما الإنطباع الذي يمكن أن يأخذه هذا الإنسان؟ ترى، ألن يتعثّر بدل أن يستفيد؟ ألن يضطرب بدل أن يشعر بالسلام؟ يقول الرب: "الويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة !"، يليق به أن يختنق في العمق بدل أن يعثّر قريبه (متى١٨:٦-٧) و(لو١٧: ١) فانظري إذاً، من ناحية أولى، كم ستكون العقوبة على ذلك عظيمة، ومن ناحية ثانية، كيف لا نفكر أن هذه العثرات هي خطيئة، ولكننا نتجاهلها لأننا نُسَرُّ بها ولا نَوَدُّ الابتعاد عنها

ولا يكفي هذا فقط، بل و كما أننا لانمسك أنفسنا في اللباس وتزيين مسكننا، هكذا لا ننضبط في الأكل و الشراب

فهل تقنعين أيتها الأخت بما يُقدَّم على المائدة؟ أم أنكِ في الحقيقة تنشغلين دائماً بالمأكل، وتتذمرين وتتعبين في تكميلهِ بالتوابل؟

والأسوأ من ذلك، أنك لا تعتبرين هذا الأمر خطيئة! في حين أنك لو فكّرتِ بعمقٍ لا بسطحيةٍ، لفهمت عندئذٍ خطأك بالتأكيد

إنكِ تعيشين مع مائة راهبة لا مع عشر أخوات، ولكي يؤمِّن المرءُ الغذاء مرتين في اليوم لكلِّ هذا العدد، لا بالخبز وحده فقط بل بالأطعمة النظامية، التي مهما كانت قليلة إلا أنها طازجة و مغذية، فهذا يتطلب مواداً كثيرة

أما أنتِ فإنك لا تفكرين بهذا أبداً، لأنك معتادة أن تطلبي طعاماً فقط لا أن تحصلي عليه بتعبك، كما يحصل عليه العلمانيون الذين يعملون بشقاء، وكلُّ خبزة يأكلونها يكسبونها "بعرق وجهكَ تأكلُ خبزاً" (تك٣:١٩)، ولا يجدونها جاهزة على المائدة

ولكن، قولي لي شيئاً آخر، هل أتيتِ إلى الدير لكي تتمتعي بالأطعمة اللذيذة، أم لتصومي وتمارسي الإمساك؟

خذي مثالاً لك، نسّاكَ الأزمنة الأولى، الذين كانوا يأكلون الخبز بمعيار، أو يتغذون بالأعشاب والنباتات، ويُروون عطشهم بالماء فقط

أما أنتِ، فلا حدّ لديك لشرب الشاي وغيره ولا نهاية لذلك!

تذكّري أنّكِ عندما دخلت الدير، قالت لكِ الأم الرئيسة: إنّ الحياة الرهبانية مليئة بالحرمانات والأحزان. وأنتِ لم تتردَّدي بالإجابة أنكِ ستسلكين بشجاعة تجاه هذه الحرمانات، وأنكِ ستتحملينها بإرادتكِ من أجل طاعة الربّ. وما هي النتيجة؟ كيف نسيت بسرعة دعوتكِ المقدسة، وكيف اختلّ بسرعة إحساسكِ التقي بالغيرة من أجل الله؟

أختي، تذكري الأيام الأولى لحضوركِ إلى الدير، عندما كان قلبك يشتعل بمحبة المسيح، وكان مستعداً ليس فقط

لتحمُّل كلّ حرمانٍ، بل وأيضاً لاحتمال كلّ أنواع الفقر من أجله. كنت تتوقين كي تصبحي أنت أيضاً مثل "مريم الجالسة عند قدمي يسوع تسمع أقواله"، أي كلامه عن "الحاجة إلى واحد" (لو١٠:٣٩-٤٢)، كلامه الذي كان أحلى من الشهد والعسل، أمّا الآن فقد أصبحت مثل مرتا المهتمّة والمنشغلة بأمور كثيرة "كانت مرتبكة في خدمة كثيرة" (لو١٠:٤٠-٤١)، ولكن هذه كان قلبها منشغلاً في خدمة الربّ، أما أنت فتخدمين نفسك وأذواقك ورغباتك الزائدة عن اللزوم

عودي أيتها الأخت إلى قَدَمَي المسيح! كم هو جميل أن تكوني بجانبه، وكم هي لذيذة أقواله، إذ "طوبى لَمَنْ يسمع كلام الله ويحفظه" (لو١١:٢٨). لأنه "في بيت أبي منازل كثيرة" (يو١٤:٢)، وهو نفسه سيهيئ هناك مكاناً للذين يحبونه، و"أيضاً آتي وآخذكم إليَّ لتكونوا أنتم حيث أكون أنا " (يو ١٤:٣) ، و"كلُّ مَنْ يحبّني يحفظ كلامي ويحبُّه أبي أيضاً" (يو١٤:٢٣)

كم يريحنا ويعزّينا وعده الإلهي، بأنَّ مَنْ "يترك بيتاً أو أهلاً أو إخوة أو امرأة أو أولاداً من أجل ملكوت الله، يأخذ مائة ضعف في هذا الزمان، وفي الزمان الآتي حياةً أبديةً" (لو١٨:٢٩-٣٠)

آه، لو أمكنك أن توردي إلى ذهنك باستمرار، وفقط، تلك

الوعود الحلوة، وأن يتجاوب ذهنك مع ما تخفيه من قوة. عندئذٍ، لن يسحرك شيءٌ من أمور العالم الباطلة والفارغة، بل ستعتبرينها كلّها " نُفَايةً لكي تربحي المسيح" (فيلبي٣:٨). فليسكن في قلبك الربّ الآن وكلّ أوان وإلى دهر الداهرين

الرسالة التاسعة

حول كثرة الكلام والثرثرة

أقول لكم إنّ كلّ كلمةٍ بطّالة يتكلّم بها النّاس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين

(متى ١٢:٣٦)

أيتها الأخت، إنك تشتكين من التجارب التي تعانيها، والتي كما تقولين، تتأتى من سوء الفهم، ومن الظنون والفضول، خلال أحاديثك مع بقية الأخوات

أعتقد أن هذه الأحاديث هي السبب الأول والرئيسي لتجاربك، وينبوع كلّ شرٍّ. لذلك أريد أن أكتب لك قليلاً فيما يتعلق بالأذى الناجم عن الكلام البطّال والكلام الكثير، الأمر المعتاد جداً فيما بينكن لدرجة أنكن لا تنتبهن إليه

تتكلمن باستمرار، بدون تمييز ولا تفكير فيما إذا كانت جميع هذه الأحاديث ضرورية أم لا، نافعة أم لا... الخ، وكأنّه من الضروري أن تقلن شيئاً، مهما كان، ناسياتٍ الصمت الذي هو في

الحقيقة الواجب الأول للراهبة، والدافع الرئيسي لنجاحها وزينة حياتـــها كلّها

إن محبة الكلام البطال، أي الأحاديث الفارغة والزائدة، هي شيءٌ متجذّرٌ بعمق في البشر، ولقد صارت كثرةُ الكلام التسلية المحبّبة لديهم. يبدو أننا لا نعلم ولا نؤمن أنَّ في هذا خطيئة، بل خطيئة جدّية أيضاً، وهذه تصبح ســـبباً لجمٍّ كبيرٍ من الخطـــايا الأخرى، أي المخاصمات والمشاجرات والنميمة والإدانة والتجريح وغيرها

فكما أنَّ كلَّ فورانٍ يحدث في الكأس، يؤدي إلى الانسكاب. هكذا كلُّ كلامٍ بطّالٍ يمارسه الإنسان، يؤدي إلى حدوث اضطراب وخلل في سلام نفسه الداخلي. إنَّ الكلام البطّال له نتائج سيئة جداً، ورغم ذلك فقد تغلغل في حياتنا اليومية، كما لو كان حاجةً ماسّةً وشرطاً ضرورياً لها. وهو يبدأ بحجّة أنه حديثٌ يتعلّق بموضوع محدَّد، وبعد ذلك ينتهي، دون شعور، إلى حديث لا لزوم له وفارغ وخاطئ. إنَّه مثل مرضٍ وبائيٍّ أصابنا جميعاً، وبصورة فادحة، وليس من السهل شفاؤه. لقد دخل في كلِّ أشكال الحياة الاجتماعية والخاصة، وأصاب أناساً من كافة الأعمار والأجناس، بغضّ النظر عن مركزهم ومكانتهم الاجتماعية، وحتى الأديار صار له نصيباً فيها. كتب أحد المرشدين الروحيين المعاصرين قائلاً:"كم نستخدم

كلامنا بدون انتباه ودون تفكير! أليس الكلام موهبةً ممنوحةً لنا من الله،ينبغي علينا تكريمها بعمقٍ؟ بينما نحن على العكس لا نوليها الاحترام. ومتى نكون قليلي العقل سوى أثناء الكلام، وما هذا الذي نُلقيه كلَّ لحظةٍ كما نلقي المهملات؟ إنَّه كلامنا. فيا أيها المسيحيون، كرِّموا كلامكم وامنحوه القيمة اللائقة به"

فالحكم علينا سيتمّ، كما يقول الربّ، بحسب كلامنا: "لأنك بكلامك تتبرَّر وبكلامك تدان" (متى ١٢:٣٧). و"أقول لكم إنَّ كلَّ كلمةٍ بطّالة يتكلّم بـــها النّاس، سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين"(متى ١٢:٣٦). فإذا كان حتى الكلام البطّال، أي الفارغ وغير اللازم، سيؤخذ جدّياً بعين الاعتبار في يوم الدين، فما الحكم والعقوبة اللذان ينتظراننا، نحن الذين نتكلم في الهواء باستمرار وبلا انقطاع؟ ولاشيء يضبطنا عن الكلام، لا المكان و لا الزمان، ولا حتى وجود غرباء، الذين نضطرهم أحياناً كثيرة، رغماً عنهم، إلى مشاركتنا في أحاديثنا الفارغة، ونجرّهم بـــهذا الأسلوب إلى الخطيئة. وإذا ما حدث هذا الأمر الأخير، فنحن عندئذ سوف نكـــون تحت دينونتَيْن، أي دينونة الكلام البطّال ودينونة إثارة التجربة أيضاً. نحن لا نفكّر بذلك ولا نحاول أن نتجنّب الثرثرة، بل على العكس، نُسيء باستمرار استخدام موهبة الكلام التي أُعطيت لنا أساساً، لكي نمجّد بـــها الخالق، ونشكره كما يليق بالمخلوق العاقل. وحتى الخلائق غير

العاقلة، تمجِّد الخالق بدونِ صوت، وذلك بعظمتها وانسجامها، دون أن تحيد البتة عن النواميس التي حدّدها لها الخالق "السَّموات تحدّث بمجد الله. والفلك يخبر بعمل يديه" (مز١٩:١). لقد أُعطيت لنا موهبة الكلام كي يفهم أحدنا الآخر، لا كما تفهم الحيوانات غير العاقلة بعضها البعض بالغريزة، بل أن نفهم بعضنا بعضاً عن طريق النطق، حيث نعبّر شفهياً وبوضوح، عن أفكارنا التي تتوارد إلى أذهاننا. وقد أنار الله ذهننا هذا لكي يكون نبعاً للأفكار والكلام، ولكي نستطيع التكلم أخوياً وبقوة الإدراك، فيما يتعلق بالحياة اليومية وواجباتنا، وذلك من أجل الفائدة والبناء، وتثبيت وتعزية بعضنا بعضاً

وبالتالي، فإن موهبة الكلام لم تُعطَ لنا لنستخدمها دون هدف، أو للإدانة والنميمة والحكم على الآخرين كقضاة ظالمين، بل يجب أن نعتبر الكلّ أخوةً لنا، ونحن خطأة وأسوأ منهم

يقول الرسول بولس:"فلذلك لا عذر لك أيها الإنسان، كلُّ مَنْ يدين، لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك، لأنك أنت الدائن تفعل ذلك بعينه، أفتحسب أيها الإنسان، الذي يدين مَنْ يفعل مثل هذه ثم يعملها أنك تنجو من دينونة الله" (رو٢:١-٣). أي، أيّاً كنت يا مَنْ تدين فلا عذر لك، لأنك إذ تدين الآخرين تحكم على

نفسك بما أنك تفعل الشيء ذاته، وهل تظن أنّك ستنجو من دينونة الله عندما تفعل أفعال مَنْ تدينهم؟. ويقول الرسول يعقوب: "لا يذمّ بعضكم بعضاً أيُّها الإخوة، الّذي يذمُّ أخاه ويدين أخاه يذمُّ النّاموس ويدين الناموس. وإن كنت تدين الناموس فلست عاملاً بالنّاموس بل ديّاناً له" (يع٤:١١). أي أن الذي يحكم على أخيه ويدينه، يحكم ويدين ناموس المحبة الإلهي

فإذا كنت تحكمين بتصرفك هذا، على ناموس المحبة الذي يمنع الإدانة، فأنت لا تحافظين بعد على الناموس بل تتجاسرين على انتقاده. في الحقيقة، ما أعظم الشرَّ الناجم عن الكلام البطّال والثرثرة!

فقولٌ واحد نتفوه به بدون انتباه، يمكنه أن يسبّب إعصاراً كاملاً للنفس وأن يملأها من الغيظ والكره. وكذلك كلمةٌ واحدةٌ نتفوه بها عفوياً دون تفكير ودون نيّة عاطلة، يمكنها أن تسبّب خطيئة مميتة، تماماً مثل الشرارة الصغيرة التي توقد ناراً عظيمة و يمكنها أن تحرق قرية بأكملها. أرجو أن تنتبهي إلى المقاطع التالية من رسالة يعقوب:"كذلك اللسان فإنه عضوٌ صغيرٌ ويأتي بعظائم... اللسان نارٌ وعالمٌ من الإثم... وهو يدنِّس الجسم كلّه ويلهب دائرة عمرنا وتلهبه جهنم... أما اللسان فلا يستطيع أحدٌ من الناس أن يقمعه... مملوءٌ سماً مميتاً. به نبارك الله الآب وبه نلعن الناس الذين صُنِعوا على

مثال الله. من الفم الواحد تخرج البركة واللعنة، فلا ينبغي يا إخوتي أن يكون الأمر هكذا، ألعل ينبوعاً من مخرجٍ واحدٍ يفيض بالعذب والأجاج... هل فيكم ذو حكمةٍ ودرايةٍ، فليبدِ أعماله من حُسنِ تصرفه بوداعة الحكمة" (لا بإدانة الآخرين) "فأما إن كنتم ذوي غيرةٍ مرّة ومنازعةٍ في قلوبكم، فلا تفتخروا ولا تكذبوا على الحق" (لا تعتبروا أنفسكم حكماء) "ليست هذه الحكمة نازلةً من فوق بل هي أرضية... شيطانية، لأنه حيثُ تكون الغيرة والمنازعة فهناك التشويش وكلُّ أمر سوء"(يع٣:٤-١٦). تأملي إذاً الأذية الناجمة عن الكلام البطّال والثرثرة، فإذا كانت هذه الأمور غير لائقة بالمسيحيين عامةً، فكم ستكون إذاً غير قابلة للغفران على الإطلاق، للراهبات اللواتي تخلّين بإرادتهن عن العالم وكلِّ طرقه الشريرة، ودخلن داخل أبواب الدير للإنصراف إلى عمل خلاص نفوسهن بدون تشتت

أما عدو خلاصنا الذي يعرف عدم ثبات البشر، وأنهم يميلون دوماً إلى حياة الخفّة والراحة، بالرغم من رغبتهم في أن يعيشوا حياة مرضية لله، فهو لا يتردد في رمي بذار زؤانه، حتى في حقول القمح الخاصة بالله. ولكن، عليكِ أن تتذكري دوماً، أيتها الراهبة، أنك عندما تركتِ العالم، تركتِ وراءَكِ طباع العالم وتعزياته المسموح بها في العالم. وأنَّ تعزيتك الوحيدة الآن، ينبغي أن تكون إحساسَك بأخويتك الشديدة

نحو الراهبات الباقيات، وأحاديثكن النابعة من القلب

ورئيستكن، كقائدة حكيمة، لا تُقيِّدكن ولا تمنعكن عن هذه التعزية، فأنتن أحرار في زيارة بعضكن، والذهاب سوية في ساعات الفراغ للقيام بنُزهةٍ ما، وكذلك عندما يكون لديكن عملٌ جماعي يمكنكن أن تتحادثن. ولكن أنتن تسئن استخدام هذه الحرية، وبدل أن تحصدن منها المنفعة والراحة الحقيقية، تحصلن على العكس تماماً، أي الإساءة للنفس والخصومات وعدم الإتفاق. وتشتعل النار بينكن وتُحرِق جميع أتعابكن الرهبانية. وهكذا للأسف تُضيِّعن خلاصكن. ترى، ألا تعرفن القول الرسولي:"كلُّ واحدٍ منَّا سيؤدي حساباً لله عن نفسه"(رو١٤:١٢)، و"للذي هو مزمعٌ أن يدين" (١بط٤:٥)

آه، لو أنكن تجتمعن مثل الراهبات الأوائل، من أجل البناء الروحي فقط والإرشاد المتبادل. عندئذ، لما كنتن تتحادثن في الأمور البعيدة عن هذا الهدف، بل فقط في كيف يمكن للواحدة منكن أن تحقق خلاصها "إعملوا لخلاصكم" (فيليبي٢:١٢)، وفي كيف ينبغي أن تقوم بقانونها الشخصي في القلاية، وما الجهادات الرهبانية التي ينبغي أن تمارسها ... هكذا، ستتمكن الواحدة من بناء الأخرى، وتمدُّ لها يدها، وتثبتها في طريق الحياة الرهبانية الضيق والزلِق.

وستتحقق بالتالي أقوال سليمان الحكيم "الأخ الذي يساعد أخاه أمنع من مدينة حصينة" (أمثال١٨: ١٩). واجتماعكن سيكون مثل اجتماع الملائكة، الذين بالرغم من كثرة عددهـــم، إلا أن لهم إرادة واحدة مقدسة: كيف يتمّمون مشيئة الخالق

يا أختي، إن حياتنا الرهبانية لا تُسمّى "حياةً ملائكية" عبثاً. فمن الأكيـــد أننا كلّنا قد جميعنا اجتمعنا في الدير باسم الربّ، ولنا إرادة واحدة وهدف واحد، ألا وهو كيف نرضي الربّ (١كو٧: ٣٢). فليست لدينا رباطات أرضية تجذبنا نحو العالم، وليست لدينا مشاكل واهتمامات دنيوية تُكبِّل أجنحتنا وتعيقنا عن الطيران نحو ختننا السماوي. فنحن أحرار مثل طيور السماء، الذين لا يزرعون ولا يحصدون ولا يجمعون في المخازن، وأبوهم السماوي يقوتـــهم (متى٦: ٢٦)

إذا، فلنفكّر بدعوتنا الملائكية "ســـالكين كما يحقُّ للدعوة التي دعينا بـــها، بكلِّ تواضع ووداعة وأناة، محتملين بعضنا بعضاً بالمحبة، ومجتهدين في حفظ وحدة الروح برباط السلام" (أفسس٤: ١-٣)

الرسالة العاشرة

حول الأحزان التي لا بدّ منها في الحياة الرهبانية وحول الاختيار الإرادي لحياة الأحزان

ليس أحدٌ يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يَصلُح لملكوت الله
(لوقا ٩: ٦٢)

أيضاً تتذمرين، وأيضاً تكرّرين الكلام نفسه: "لا أحتمل ذلك، أحزان باستمرار أينما ذهب الإنسان"

إن هذه الكلمات مقاومة لله، لأنـــها تذمّرات نفسٍ ناكرةٍ للجميل، في الوقت الذي أنعم الله عليها بالكثير من الصالحات. كما أنـــها كلماتٌ غبيّةٌ لا توافق مشاعرك وأعماقك

قولي لي، هل جئت إلى الدير، لأن أحداً ما قد نصحك أو اضطرَّك على ذلك، أو بسبب حوادث معينة؟ ألم تأتي لأنك أنتِ التي أردت ذلك، وخالفت رغبة وآمال أهلك وأصدقائك. وعندما تكلّموا معك عن صعوبات الحياة الرهبانية، قلتِ لهم إنك مستعدةٌ

لمواجهة كافة الأحزان والحرمانات، وأكّدتِ على أن نفسك لن تجد الراحة ولن تتحقق أمنياتك إلا في الرهبنة فقط، وأن أمنياتك لن تتحقق إلا فيها أيضاً

إذاً، فأنت قد اتّبعت هذه الطريق بإرادتك، وتعلمين جيداً أنـــها ليست طريقاً رحبةً واسعةً، بل ضيقة ومحزنة، تلك التي سلكها ربنا الذي سيمنحنا الأجر "وأبقى لكم قدوةً لتقتفوا آثاره" (١بط٢:٢١)

فلماذا إذاً تدخلين في التجربة، ولماذا تعارضين نفسك؟ إنّ الطريق التي اخترتِـــها، لم تدعى "شائكة" لو لم يكن فيها أشواك، و لم تدعى "ضيقة" لو كانت واسعة ورحبة

وطبعاً، إنّ الأمور في نظامها لا تتعارض مع نفســـها، أما نحن فكثيراً ما نناقض أنفسنا، سواء في الكلام أو في الأفكار

فهل يا ترى تغيّرت نيّة قلبك، حيث أنّ الذي أحببتِـــه أولاً أصبحتِ تكرهينه، والذي كنت تتوقين إليه مســـبقاً، تنفرين منه الآن؟ أين هو اســـتعدادك لتحمّل كافة الأحزان والحرمـــانات من أجل ختنك الحلو، المسيح الذي طلبته نفسك؟ تذكري أنه ما من أحدٍ يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله" (لو٩:٦٢)

فكما أنّ المسافر، الذي يبدأ بسفرٍ طويلٍ وصعب، ولكنّه يتوقف كلّ فترة وينظر إلى الوراء، وفي كل محنة يتردّد، ويفكر أنـــه ربما كـــان من الأفضل أن يعود.... هذا المسافر ليس فقط لن يصل إلى هدفـــه بسرعـــةٍ، ولكنه بالأحرى لن يصل إلى هدفـــه أبداً

هكذا نحن، المسافرين في هذه الحياة، والسالكين طريق الصليب الرهباني لكي نصل إلى المساكن السماوية، لن نصل بسرعة، بل لن نصل أبداً، إذا كنا في كلّ محنةٍ وفشلٍ نتوقف وننظر إلى الوراء ونتهيأ للعودة. ليتنا لا نبقى خارج الخدر، متأخراتٍ متضرعاتٍ من أجل الدخـــول، مثل العذارى الجاهلات في المثل الإنجيلي. وليته لا يـــُحكم علينا مثل أولئك اليهود الذين بسبب تذمرهـــم لم يروا أرض الميعاد (عدد١٤:٢٣-٣٠). وليتنا لا نتحوّل نحن أيضاً في النهاية إلى عمود ملح مثل امرأة لوط، التي رغم أنّ الملاك نفسه قد أخرجها من سدوم وعمورة، وكانت في طريق الخلاص من الموت الرهيب، إلا أنـــها خالفت الوصية ونظرت إلى الوراء، فماتت على تلك الطريق ذاتـــها، طريق الخلاص. وأنت أيضاً، ألا يحدث معك الشيء نفسه؟

كم من المرات تنظرين إلى الوراء وأنت تسلكين طريق الخلاص، طريق الحياة الرهبانية التي أرشدتك إليها العناية الإلهية. وكم

من المرات تأتيك أفكار الشرير، فتجعلك تشكّين إذا كان هذا الطريق يقود حقيقةً إلى الخلاص!. وهذا كُلُّه فقط لأنك تواجهين بعض الصعوبات أو الأحزان أو الفشل. ألا تعلمين أنه في هذه الأمور يكمن خلاصكِ؟! إعلمي أنه عندما تضطرب نفسك، من الصعب عليها أن تثبت في مخافة الله، فهل تستطيع عيناك الروحيَّتان أن تريا نور الله عندما تُحجبان بغيمة اليأس؟ وعندما يكون قلبك منقسماً إلى اثنين بطريقةً ما، فهل يمكنه أن يكون للربّ وحده؟

"إن الرجل ذا النفسين متقلقلٌ في جميع طرقه" (يع١:٨)

فكّري بكلام الرسول:"فأنا أخاف عليكم أن أكون قد تعبت فيكم عبثاً" (غلا٤:١١). أي، ربما أنت أيضاً تجاهدين عبثاً، بتساهلك مع العدو في الجهاد الذي يقوم به قلبك. "أما الآن إذ عرفتم الله بل بالحري عرفتم من الله فكيف ترجعون أيضاً إلى الأركان الضَّعيفة الفقيرة التي تريدون أن تستعبدوا لها من جديد" (غلا٤:٩)

لا يا أختي، "ولنحاصر بالصَّبر في الجهاد الموضوع أمامنا ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمّله يسوع الَّذي من أجل السّرور الموضوع أمامه احتمل الصَّلب مستهيناً بالخزي" (عب١٢:١-٢). فكّري بآلام الربّ، ولا تدعي شيئاً من التجارب يحزنك، ولا تصغر

نفسك، (فالذي يحبُّه الربّ يؤدبه)، "لأنَّه حتى الدم ينبغي أن نجاهد ضد الخطيئة"، ولأنَّه "إن كنّا نصبر فسنملك أيضاً معه. إن كنّا ننكره فهو أيضاً سينكرنا" (٢تيمو٢:١٢)، ويقول الرسول أيضاً للعبرانيين: "قد نسيتم التعزية التي تخاطبكم كالبنين"، ويقول الرب: "يا بُنيَّ، لا تحتقر تأديب الربّ، ولا تَخُرْ إذا وبَّخك،لأنَّ الـــذي يحبُّه الرّبُّ يؤدِّبه و يجلد كل ابن يقبله" (عب١٢:٥-٦)

فاصبري إذاً أيتها الأخت على الأحزان والتجارب، وانتظريها كشيء لا بدَّ منه، أو كزوَّار مفروضين عليك، واخرجي للقائهم بشجاعةٍ واســـتعداد، بل وبفرحٍ أيضاً، رافعة أفكارك نحو الشهداء الأربعين القديسين، كيف كانوا يتقدمون إلى العذابات بفرح قائلين: "قارسٌ هو الشتاء، ولكن عذبٌ هو الفردوس". كان الشهداء يتوجهون إلى الاستشهاد كما إلى عيدٍ واحتفال؛ فلا التقطيع، ولا التعذيب بالعجلات، ولا افتراس الوحوش لهم، ولا الغرق في الماء، ولا الحرق بالنار.... لاشيء أبداً كان يُرعبهم. بل كانوا طائعين في كلِّ شيء، وصارخين مع الرسول:"فمَنْ يفصلنا عن محبة المسيح، لا حزن ولا ضيقٌ ولا اضطهادٌ ولا عريٌّ ولا خطرٌ، ولا موتٌ ولا حياة، يمكنه أن يفصلنا عن محبّة الله" (رو٨:٣٥-٣٩)

إنك تلاحظين أنني لا أستخدم كلماتي الخاصة في إرشادك

وتعزيتك، ولا أستخدم فصاحتي القليلة نسبياً، بل أُذكّرك بأقوال الروح القدس، الذي يتكلّم بواسطة الرسل إلى جميع البشر، لتعليمهم وتعزية جميع المجاهدين جهاد الخلاص، المثقلين بالأحزان والشدائد في هذه الحياة

هوذا ربنا يسوع المسيح نفسه، يدعو إليه كلَّ المجاهدين:"تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين و الثّقيلي الأحمال وأنا أريحكم، إحملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي، لأنّي وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحةً لنفوسكم، لأنَّ نيري هيّن وحملي خفيف" (متى١١:٢٨-٣٠)

فليمنحك الله أن تشعري في أعماقك، وأن تفهمي، كم هو ليّنٌ نير الرب وكم هو خفيفٌ حمله. وربما تحصلين على ذلك ببركته، ولكن إلى ذلك الحين، حاولي أن تقوّي قلبك على الخضوع المطلق لإرادة الله والثقة غير المتزعزعة بعنايته الإلهية، التي بدونـــها لا يمكن أن يتم أيُّ شيء مهما كان صغيراً جداً. "وأنتم، فإن شعر رؤوسكم جميعه محصى، أليس عصفوران يُباعان بفلسٍ، ومع ذلك فواحدٌ منهما لا يسقط على الأرض بدون أبيكم، فلا تخافوا فإنكم أفضل من عصافير كثيرة" (متى١٠:٢٩-٣١)

آه يا إلهي، كم هي عظيمةٌ رحمتك نحونا نحن الخطأة، وكم هي متحننةٌ عنايتك بنا! لتكن مشيئتك الفائقة الصلاح والكاملة فينا

نحن الجهّال، وازرع في قلوبنا روح التواضع والخضوع الكامل لك، لأنَّ لك المُلك إلى الدهور. آمين

Ἀναχωρηταὶ τῆς Αἰγύπτου

الرسالة الحادية عشرة

حول الأمراض ومعالجتها

من كثرة خطاياي مَرِضَ جسدي وضَعُفَت نفسي

المجد لله أيتها الأخت، إذ تعافيتِ وقمتِ من الفراش. المجد لله الذي منحك حياةً جديدةً بعد الآلام، نتيجة ضعف الجسد، ومما لاشك فيه، نتيجة ضعف النفس أيضاً، لأنه من كثرة خطايانا تمرض أجسادنا ونفوسنا

أتعلمين أين تجد كنيستُنا المقدسة، السببَ في جميع أمراض الجسد والنفس؟ إنها تجده في خطايانا، "لأنّنا في أشياء كثيرة نعثر جميعنا" (يع٣:٢) كما يقول الرسول. فنحن السبب فيما يصيب أجسادنا ونفوسنا من الأمراض، سواء بالفعل أو بالفكر، بمعرفةٍ أو بجهل، بإرادتنا أو بدون إرادة. لأن عادة الخطيئة السيئة تجرُّنا كعبيدٍ حتى نفعل ما لا نريده. "لأنّي لست أفعل الصّالح الذي أريده بل الشّر الذي لست أريده فإيّاه أفعل"(رو٧:١٩)

وبعد أن تسود الخطيئة على النفس تقودها إلى الهلاك، ولولا

معونة الله لهلكت نفوسنا. لكنَّ الربَّ، الربَّ هو معيننا! يخلّصنا من الهلاك، يمدُّ لنا يده ويقيمنا من سقطتنا. فإذا لم ننتبه إلى توصيات الربّ وتنبيهاته لنا، فإنه سوف يؤدِّبنا أبوياً بالأحزان والأمراض، لكي يُنقّي نفوسنا كالذهب في البوتقة، ومن ثم يأتي هو ويجدِّد حياتنا، ويمنحنا قوة لكي نخدمه بالأعمال الصالحة

وهكذا أيتها الأخت، لقد منحكِ الله أنت أيضاً نعمةً، وأقامك من فراش الألم، وجدَّدك بعد عذاباتٍ كثيرة مستديمة. ولكن، كما قال الربُّ للمخلّع:"ها أنت قد برئت. فلا تخطئ أيضاً لئلاّ يكون لك أشرُّ"(يو٥:١٤)، هكذا يليق بكِ الكلام نفسه،فانتبهي إذن ألاّ يصيبك أسوأ، بعد أن تعافيتِ

إفحصي ذاتك بواسطة صوت ضميرك، وابحثي عما بدر منك فأثار غضب الله عليك حتى أرسل لكِ هذا المرض. لأنَّ أبانا المفعَم بالمحبة، من شأنه أن يؤدب الذين يحبهم "الذي يحبُّه الرب يؤدِّبه" (عب١٢:٦)، "فإن الذهب يمتحن بالنار والمرضيِّين من الناس يمحصون في أتون الاتضاع" (سيراخ٢:٥)

فالربُّ يجرِّبنا، وهو "لا يريد أن يهلك أحدٌ بل أن يُقبل الجميع إلى التوبة" (٢بط٣:٩). ومن الأكيد أنَّ الأحزان والأمراض لا يرسلها الله إلينا دوماً بسبب خطايانا، وهناك أمثلة كثيرة عن أبرارٍ

وصديقين، مثل أيوب الكثير الآلام في العهد القديم، أرسل الله لهم الآلام و العذابات من أجل أن يكمُلوا في الصبر والتواضع والقداسة، حيث لا توجد حدود يصل إليها الإنسان "إلى قياس ملء قامة المسيح" (أفسس٤:١٣). وفي بعض الأحيان، يسمح الله بأن نُجرَّب نحن الخطأة، لكي أننا بصبرنا و خضوعنا لإرادته، نُظهر له بُنوَّتنا ومحبتنا التي لا تتغير، وتواضعنا الكامل. فينبغي أن نقبل بصبر كلَّ ما يرسله الله إلينا، مثل أيوب الكثير الآلام، "ألخير نقبل من عند الله والشرَّ لا نقبل" (أيوب٢:١٠)، معتبرين إياه لا كأمور سيئة بل كرحمة من لَدُنْه، لأنه في الحقيقة، رحمة هي أن يهتم الله بخلاصنا بطرائق تسبب لنا الحزن. فهو بالعذابات القصيرة والقليلة نسبياً، ينجينا من العذابات الأبدية غير المحتمَلة التي تستحقها خطايانا الكثيرة

تقولين إنكِ ذهبت إلى الأطباء و لم تنالي منهم الشفاء، مع أنك اتَّبعت إرشاداتهم بدقة. وأنا أفرح لذلك، لا لأنك عانيتِ كثيراً بلا فائدة، ولو استطاعوا شفائك لكان ألمك أقلّ؛ بل لأنك تستطيعين الآن أن تُرجعي أمر شفائك إلى رحمة الله فقط، وليس إلى المقدرة والعناية البشرية، "ليكون فضل القوة لله لا منّا" (٢كو٤:٧)

ولكن، حتى لو أن راحتك حصلت نتيجة المعالجة الطبّية، فإنه

من غير الممكن أن يتمَّ غير ذلك، لأنَّ إرادة الله ورحمته قد تجلّت بواسطة الطبيب، أي بواسطة إنسان، "لأن الشّفاء من عند العليِّ ومن الملك ينال الطّبيب العطايا الربّ أخرج الأدوية من الأرض" (سيراخ ٣٨:٢-٤)

فالمجد لله، لقد تعافيتِ وتقولـــين إنك ستبدأين حياةً جديدةً، وهذا هو الصحيح. لأنَّ الإنسان عندما يكون مريضاً جداً في الفراش، فهو مثل الميت. وكم من المرّات تـــهيأتِ للموت والمثول أمام الديان، ومراتٍ كثيرة تناولتِ القرابين المقدسة من أجل شفاء النفس والجسد، وها قد تعافى جسدك وتجدّدتْ حياة نفسك

لأنه، ما الذي يُحيي أكثر من سرّ التقديس العظيم هذا؟ فهو يشفي المرضى وينتشلهم من أبواب الموت، ويسكب في النفوس قوى مقدسة جديدة. وعندما يثبت الإنسان فيه، يتجدَّد بكامله ويقوم، كما حصل معكِ الآن

فانتبهي الآن، واحترسي من المخاطر باجتهاد، لكي لا يصيبكِ أسوأ. حافظي على صحتك فهي هدية من الله، ولا تسمحي لشيء أن يؤذيها. وكوني يقظة معتدلة في كلِّ شيء، لأنَّ هذا سيحافظ ليس فقط على صحتك الجسدية وحسْب، بل وعلى صحتك النفسية أيضاً "ها قد تعافيتَ فلا تعد تخطئ أيضاً"

الرسالة الثانية عشرة

حول الصلاة

يعطي الصلاة للمصلِّي

تتذمرين أيتها الأخت من أجل كسلك وضجرك وتشتتكِ في الصلاة، وتطلبين مني أن أقول لكِ بعض الأمور فيما يختصُّ بذلك

الصلاة! إنها بحرٌ كبير، يستطيع المرء أن يأخذ منه كافة الثروات الكامنة في أعماقه... إنه لأمر يفوق طاقتي، ولا يليق بعجزي أن أشرح، ولو جزئياً، ما كتبه الآباء الملهمون من الله فيما يخصُّ الصلاة، وما اختبروه في ذواتـــهم من مواهبها العظيمة. فهل من الممكن أن أحقّق ما تطلبينه مني في كلماتٍ قليلةٍ ضمن رسالة؟. طبعاً لا، ولكنّي سأحاول

يقول القديس يوحنا السلمي عـــن الصلاة: "الصلاة هـــي عمل المـــلائكـــة، مصالحـــةٌ مع الله، غفرانٌ للخطايـــا، أمٌ وابنةٌ للدموع، الجسر المنجّي مـــن التجارب، استنارة الـــذهـــن، غـــذاء النفس، محاربة اليأس، التذوق المسبق للسرور الأبـــدي. الصلاة

هـــي غنى الرهبان وكنـــز النسَّاك"

فالصلاة هي هدية الله للمصلّي، أي لـــمَنْ يجاهد فيها باستمرار وبلا انقطاع، مطبِّقاً القول القائل: "يعطي الصلاة للمصلّي" (١ملوك٢:٩). وإن ما يُقال على بقية الفضائل في كونـــها لا تُكتسَب بسرعة ولكن بحسب درجة ممارسة الإنسان لها، ينطبق أيضاً على الصلاة

فالصلاة تتطلّب وقتاً طويلاً، جهاداً مستمراً، وغصباً للنفس. ولكن المدهش في الأمر، هو أنَّ النفس البشرية كثيراً ما تكون لا مباليةً وباردةً أثناء الصـــلاة، في حين أنّنا نعلم أنَّ الصلاة هي حديثنا مع الله وارتفاع ذهننا وقلبنا نحوه، وهو مثالنا الأصلي، وبالتالي فإنّ حالتنا الطبيعية هي أن تتوجّه نفوسنا نحوه بما أنَّه صورتنا الأصلية. إنني استغرب كيف أنّنا نتحدث مع أقربائنا وأحبائنا بنشاطٍ كبير، ونعرض مشاكلنا وحاجاتنا للرؤساء وأقوياء هذا العالم بسهولة كبيرة، نُظهر أوجاعنا وجراحنا وأمراضنا للأطباء بسرعة دون صبرٍ منَّا. في حين أنّنا في الصلاة الموجَّهة لأبينا السماوي، الذي يحبُّنا ويمكننا بشجاعةٍ أن نعبِّر له عن محبتنا، بما أنَّه طبيـــب النفـــوس والأجساد، ورئيس الكهنة العظيم الذي يستطيع أن "يرثي لضعفاتنا" (عب٤:١٥)، وهو ملك الملوك وربُّ الأرباب، فإنّنا لا نقف أمامه

بدون التخشع المطلوب وبدون المحبة والشوق اللائقَيْن، وحسبْ، بل إنَّنا نقف دائماً بدون أيِّ انتباهٍ، كما لو كنّا نصلّي مضطرين ومجبَرين، لا بدافع رغبة قلوبنا

أليس هذا غريباً ومحزناً؟ ولكن ما هو السبب في ذلك؟

إنَّ الأسباب كثيرةٌ، وأوَّلـــها أنّنا منجذبون بشدةٍ نحو الأرض، وبدل أن تكون نفوسنا هي السائدة على أجسادنا الترابية، يصير العكس، وتصبح نفوسنا عبدةً لـــها.فهذا الجسد الممتلئ من الأهواء والمحكوم عليه بالفساد، قد صار سيِّداً على النفس الحرّة التي لا تموت، وألقى بثقله على أجنحتها، ومنعها من التحليق نحو السماويات. وحياتنا هذه المتزعزعة على الأرض قد استولت علينا، وقيَّدتنا في شباكها لدرجةٍ أنه أصبح من الصعبُ علينا أن نـــهرب ولو لساعة واحدة، حتى نمثل أمام العين النيّرة، عينِ الله، ونرى المسيح شمس المجد بقلبٍ نقي، لأنه فقط "الأنقياء القلوب يعاينون الله" (متى٥:٨). إنَّ كلَّ المواضيع التي تشغلنا، العامة منها والمعتادة، والتي أجَّلناها، أو في أفضل الأحوال لم نـــهتم بإيجاد حلٍّ لها لعدم أهميتها، فإنَّـــها أثناء الصلاة تُخيِّم على سطح بحر أنفسنا، والذي بالكاد بدأت أمواجه بالهدوء استعداداً للصلاة. عندئذٍ، كوننا قد أدركنا خداع العدو، علينا أن نسرع، ومن اللحظة الأولى، للتغلب عليه، وإلاَّ فإنه سيسود

علينا بإصرار، وسيثير علينا عاصفةً هوجاءَ من الأفكار والاضطرابات التي تتوالى بسرعة وتمنعنا أخيراً من الصلاة. يا لَنا من أُناس عاجزين نستحقُّ الإشفاق! نسرع للتذلُّل لهجمات العدو! إنَّنا لم نبدأ بعد بممارسة الصلاة الصحيحة ولا بتذوّق ثمارها!

يَقسِم القديس يوحنا السلّمي الصلاةَ إلى درجاتٍ ثلاث، ويقول: "بداية الصلاة هي طرد هجمات الأعداء بتصميمٍ وعزم، ووسطها هو ثبات الذهن في كلمات ومعاني الصلاة، ونهايتها هو انخطاف الذهن نحو الله". ويصل عادةً إلى هذه الدرجة الأخيرة، فقط الكاملون في الحياة الرهبانية، إلاّ أنَّ الله من أجلِ رحمته العظمى، يؤهِّل البعض أحياناً أن يتذوقوا هذه الحالة حتى لو لم يكونوا قد تقدموا كثيراً في الصلاة، كمكافأة على محاولاتهم وجهادهم

سأعطيكِ مثالاً: كنتُ بعد مبتدئة، وأرسلتني الأم الرئيسة غلافيرا إلى الراهبة ثيوكتيستي، وكان ذلك بعد صلاة الغروب، حيث كانت معظم الراهبات قد ذهبن إلى غرفة الطعام (المائدة)

عندما وصلتُ إلى باب القلاية، قلتُ كالمعتاد: "بصلوات آبائنا القديسين..."، وفتحتُ الباب دون أن أنتظر الجواب. عبرتُ الممرَّ وشاهدتُ المنظر التالي: كانت الشيخة ثيوكتيستي راكعةً في زاوية القلاية أمام الأيقونات، ويداها وعيناها

مرفوعاتٍ نحو القديسين. ويبدو أنَّها لم تشعر بدخولي، رغم أنّي قلت الصلاة بصوتٍ عالٍ وأن الباب انفتح بقوة، وكانت هي وحدها في القلاية. وقفتُ أنا في الممرِّ بتردُّدٍ، لا أجرؤ على التقدم ولا أعرف ماذا أفعل

فإذا بقيتُ في القلاية، قد أسبِّبُ للشيخة إحراجاً عندما سوف تنتبه إليَّ وتشعر بوجود أحدٍ يشهد على صلاتها المرتفعة. وإذا ذهبتُ، سيُحدِث الباب صوتاً من جديد

بعد ذلك قرَّرتُ ألاّ أذهب، وكانت تُسمَع في الممر أصواتُ البهجة الصادرة عن الأخوات، أثناء خروجهن من المائدة، وهنّ ذاهبات إلى قلاليهنَّ

وأخذتُ أترقَّب دخول تلميذتَيِّ الشيخة، اللتين كان ينبغي أن تعودا، ولكنهما لم تأتيا، مما جعلني أُسَرُّ كثيراً. لا أعرف كم من الوقت بقيتُ هكذا، مندهشةً مما أرى ولا أعرف ماذا أفعل، وربما انقضت ساعةٌ كاملةٌ أو أكثر، والشيخة لم تغيِّر وضعها ولم تتحرك إطلاقاً، وكانت فقط بعض التمتمات الصادرة عنها تدلُّ على يقظتها

أخيراً، أخفضتْ يديها وأحنَت رأسها نحو الأرض، وبقيتْ على هذه الحالة دقائق قليلة، ثم قامت ومسحت أنفها بمنديلها.

ففهمتُ حينئذٍ أن الشيخة عـــادت من انخطافها. وإذ لم أشأ أن تعرف بأنني كنت هناك، فأسبِّب لها المضايقة، فتحتُ الباب نصف فتحة، وقلتُ الصلاة مرة أخرى، وكأنني قد دخلت الآن، فأجابت "آمين"، وأسرعتْ واختفتْ في إحدى زوايا القلاية، ثم خرجتْ ببطء، وهي تفرك عينيـــها وتقول بأنـــها أرسلت تلميذتَيها إلى مكان ما وغلبها النوم. أمّا أنا فصنعتُ لها مطانية وأنا أضبط دموعي بصعوبة، وشرحتُ لها السبب الذي أتيتُ إليها من أجله. أمّا هي، فتظاهرت وكأنّها لم تسمع كلماتي، وفعلاً لم يكن باستطاعتها أن تسمع، لأنَّ نفسها كانت ما تزال في مكان آخر أسمى بكثير، لا علاقة له بـــهذا العالم

ونظرَتْ إليَّ باستغراب، ثم قالت: "هل أنتِ هنا منذ وقت؟!". عندئذٍ كذبتُ، وقلت لها بأنني الآن قد دخلتُ، ولكنّ مظهري كان يدلّ على شيءٍ آخر، لأنّ الدموع كادت تنهمر كالنهر، وأنا أرى وجهها الهادئ الملائكي

إلاَّ أنني استمرَّيتُ بتأكيد كذبتي، لأنني لم أشأ أن أسبِّب الاضطراب لها

أما هي فبقيت صامتة، ونظراتـــها نحو الأمام، ودموعها تنهمر من عينيها دون أن تمسحها، وواضحٌ أنـــها لم تكن تشعر بذلك،

فهي حزينةٌ لأنـــها خرجت من الحالة التي كانت فيها. وأخيراً عادت وسألتني: "هل أنتِ هنا منذ زمنٍ طويل؟"

في هذه المرّة لم أستطِع أن أقول شيئاً، فقط صنعتُ لها سجدة إلى الأرض. ولا أستطيع أن أدرك كيف تجرّأتُ وسألتُها: "أيتها الأم، ماذا يحدث لكِ؟"، أما هي فوجَّهتْ نظرها إليَّ باستغراب ثم قالت بلطفٍ:

"لا شيء يحدثُ لي يا ابنتي، ولكن أشعر وكأنني طرتُ، وذهبتُ إلى مكانٍ ما ورأيت شيئاً هناك". ثم أخذت تبكي من جديد

وبعد أن صمتَتْ قليلاً، تابعتْ قولـــها: "سأقـــول شيئاً واحداً، المجد لكَ يا رب"، ورسمتْ إشارة الصليب. ثمّ سألتني عن أموري، وعزَّتني طالبةً مني ألاّ أتضايق من أجل أحزان الحياة الرهبانية، ثمّ ودَّعتني بقولها: "إذهبي الآن بسلام، وقولي للأم الرئيسة إنّني أنا أبقيتُكِ كلَّ هذه المدّة"

كانت الشيخة ثيوكتيستي تنحدَّر من طبقة القرويِّين البسطاء، وكانت قليلة الثقافة وربما لا تعرف القراءة، وقد خدمتْ سنواتٍ كثيرة في ممارسة أعمالٍ صعبة. فكانت تذهب إلى القرى والمدن، وتجمع الأموال من أجل الدير

وعندما شاخت وضعفت قواها، أُعتِقت من خدماتـــها،

وصارت تواظب على خِدم الصلوات في الكنيسة فقط، مثل بقية الشيخات

كانت حياتـــها في القلاية، كما أحكم بحسب الظاهر، مثل حياة باقي الراهبات، إلاّ أنّ ميل نفسها الداخلي كان معروفاً لدى مَنْ "يفحص القلوب" فقط

سأقصُّ عليكِ أيضاً حادثة أخرى، تختص بالصلاة التي تُصعِد نحو العلاء، أولئكَ الذين يجاهدون من أجلها

كانت توجد في ديرنا راهبة، شابة نوعاً ما إلاّ أنـــها كانت مُرضيةً لله في تقدمها الروحي، وكانت تُقيم مع شابَّتين مبتدئتَين. وما سأقصُّه عليك الآن قد حدث يوم سبت النور. ففي ذلك اليوم بعد العشاء، ذهبت المبتدئتان إلى مكـــانٍ ما لقضاء عملٍ معيّن، وأرادت الراهبة أن تستغلَّ وجودها وحيدةً لتصلّي، وهذا ما قالته لي حرفياً: "أتذكّر أنني بدأتُ أتلو قانون يسوع الحلو عن غيب، وكنتُ أشعر بحضوره في قلبي، إذ كنتُ قد تناولت القربان المقدّس في ذلك اليوم. قلتُ البيت الأول ثم الثاني، ثمّ بدأتُ أشعر بالحرارة في نفسي أكثر فأكثر وبالمحبة نحو الرب

بعد ذلك، وشيئاً فشيئاً، بدأتُ أرتجفُ بكلّيتي نفساً وجسداً، وأبكي بدموع غزيرة، وفقدتُ قواي الطبيعية، ولكي لا أقع، ركعتُ

وصنعتُ مطانية أمام الأيقونات المقدّسة، بينما استمرَّيتُ داخلياً بترداد قانون يسوع، وعلى ما يبدو أنني قلته حتى المنتصف، لأنني لم أتذكّر ما يليه لكي أستمر

وشعرتُ أنّ كـــلَّ شيء حـــولي قـــد اختفى، الأرض والأشياء الماديـــة. وظهر أمـــامي مشهدٌ آخـــر، فلقد رأيتُ على بُعدٍ مني، عـــرش الله ويسوع المسيح نفسه يجلس عليه، يحيط بـــه جمهورٌ مـــن الكائنات، لا أتذكّر إن كان بشراً أم ملائكة، وجميعهم يرتّلون بطريقة شجيّة ولا أتذكّر شيئاً آخر، أو إذا كان المشهد قد استمرّ وقتاً طـــويـــلاً أم لا...

إلاّ أنّ المبتدئتَين قالتا لي إنـــهما عندما عادتـــا إلى القلايـــة، وجـــدتـــاني راكعـــةً أمـــام الأيقونـــات، فاعتقدتـــا في البدايـــة أنني أصلّي، ولكن عندمـــا مـــرَّ الوقت ولـــم أقُـــم، ظنّتا أنني نائمـــةٌ فصاحتا بي، ولكن دون جـــدوى، فتركتاني بـــهدوء

وعندمـــا عدتُ إلى نفسي من تلك الرؤيـــة العجيبة، كانت قلايتي خاليةً لا أحـــد فيها، ففرحت لذلك. أمـــا الأرض، حيث كان يستندُ جبيني، فقد كانت ممتلئةً من الدموع مثل الماء، رغم أني لـــم أشعر بـــها، لأني أنـــا نفسي لا أعـــرف مـــاذا حدث لي، إلاّ أنَّ اللذة التي مـــلأت قلبي في تلك اللحظات، استمرّت في نفسي

لوقتٍ طويل كشاهد لزيارتي السماويـــة

فيا أيتها الأخت، أترين الأمثلة على سمو الصلاة وتركيزها، حتى مع راهبات في عصرنا الحالي؟ فما الذي يمنعنا إذاً من أن نبلغ نحن أيضاً إلى هذا السمو؟

طبعاً، توجد أمثلة كثيرة مشابـــهة في كتب الآباء، إلاّ أنّني تقصَّدتُ أن أورد لكِ أمثلة من حياة راهبات معاصرات، حتى لا نبرِّر كسلنا الشخصي عندما نسمع أو نقرأ عن مآثر القديسين العظيمة، فنقول باستمرار: "كان يوجد قديسون في ذلك الحين، وقد حدث هذا في ذلك العصر، أما اليوم فالبشر ضعفاء والزمان قد تغيّر!"

وإني أقـــول من خبرتي الشخصية، إنـّه يـــوجـــد الآن أيضاً مجـــاهـــدون حقيقيون، فـــلا الـــزمـــان ولا المكان يصنعان الانسان القديس، بـــل إرادتـــه الحـــرّة وعزمـــه الثابت

فصليِّ بـــلا انقطاع، والله لـــن يحـــرمـــكِ مـــن بـــركتـــه

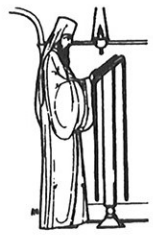

الرسالة الثالثة عشرة

حول الصلاة الداخلية الذهنية التي تتم في القلب سرّياً

إن الكلمة قريبة منك، في فمكَ وفي قلبك

(رو١٠: ٨)

لقد حدَّثتُكِ يا أختي في رسالتي الأخيرة، عن الصلاة بشكل عام. أما الآن، فسوف أتكلّم عن بعض الأمور المختصّة بالصلاة الداخلية التي تسمّى "ذهنية" (كونـــها تتم في الذهن فقط)، وهي تسري في القلب سرِّياً

وبما أن هذه الصلاة لها الصفة الروحية الكاملة، فلا ينبغي ولا يمكن أن تُحَدَّ في المكان والزمان أو أي شيء آخر. لأنّه كما أنّ الروح القدس الذي يُحيي كلَّ صلاة، هو غير محدود، هكذا فهذه الصلاة بما أنّها صلاة النفس، تفعل سرياً وليست محدودة بالمكان والزمان

يقول كتاب المزامير: "في كلّ موضع سيادته باركي يا نفسي الربَّ" (مز١٠٣:٢٢). "مساءً وصباحاً وظهراً أشكو وأنوح فيسمع صوتي" (مز٥٤:١٧)

ويُعلّم الرسول بولس قائلاً: "صلُّوا بلا انقطاع" (أفسس٥:١٧)، ومن الواضح أن الرسول يعني هنا الصلاة الداخلية، أي صلاة القلب والذهن، لا الصلاة الخارجية، لأنّ الجسد مادّي وضعيف، ولا يمكنه الوقوف في الصلاة بلا انقطاع وبدون تزعزع، وذلك ليس بسبب ضعفه وحسب، بل وبسبب تعلّقه المطلق بالتعابير الخارجية للحياة واضطراره للاشتراك بها

وكما ينبغي للجميع أن يمارسوا الصلاة الذهنية السرية، لأنّها كثيرة الثمن أمام الله، بحسب قول الرسول بطرس: "إنسان القلب المستتر أي زكاء الروح الوديع الساكن..." (١بط٣:٤)

وإذا كان من واجب الجميع ممارسة هذه الصلاة الذهنية والسرية، كما يقول الرسول بولس، فكم بالأحرى هي واجبٌ على الرهبان، الذين بإرادتهم قد ابتعدوا عن اهتمامات الحياة، وكرّسوا ذواتهم كلّياً للصلاة ومشاهدة الله

إنّ الراهبة المبتدئة عندما ترتدي اللباس الأسود لأول مرة، يعطونها مسبحةً، لكي تُذكّرها أثناء حملها بالصلاة المستمرة، التي

ينبغي أن تمارسها وتتدرّب عليها شيئاً فشيئاً، أي بالعمل الروحي الذي يُعبِّر عنه الآباء بالصلاة العقلية، والتي هي عادةً ترداد صلاة: "يا ربي يسوع المسيح يا ابن الله ارحمني أنا الخاطئ"

ولكن، ويا للأسف، فإنّ المسبحة في عصرنا قد أضاعت معناها الذي تَحرَّف، (مثلها مثل كثير من الأمور الأخرى ذات الهدف الروحي السامي)، إذ لم تعد تُستخدَم من أجل الصلاة، بقدر ما تُستخدَم لتكميل الملابس، فهي تشكّل أفضل زينة، و لم تعد تُحبَك كما في الماضي من خيوط صوفية أو كتّانية بشكلٍ جيد ذي عقد صغيرة متتالية، أو كما كانت تسمّى "سلالم"، بل صارت تُصنَع من الخرز الغريب الشكل أحياناً

وإن الراهبات صغيرات النفوس تجدن سروراً في هذه الخرزات، وتستعرضنها الحبة تلو الأخرى. ومازال القليل من الأديار يحافظون على تقليدهم، وعلى "القانون العام" للصلاة بالمسبحة المترافقة مع المطانيات أو بدونها. إن المعنى الحقيقي للمسبحة، هو أن تساعد الراهب في التمرُّن على الصلاة الداخلية المستمرة، ولقد ضاع هذا المعنى تقريباً بالكلية. ولكن هذا لا يعني أنه لا يمكن للإنسان أن يكتسب عادة الصلاة العقلية بدون المسبحة، بالعكس، فأنا أعرف أشخاصاً لم تكن لديهم أيّةَ مسبحةٍ، لأنهم لم يكونوا رهباناً،

وقـــد صارت الصلاة العقلية مَلِكاً لهم، فلا معاشرتـــهم لغيرهم من العلمانيين، ولا الاهتمامات التي تثقل كاهلهم في العالم، ولا شيء آخر كان يزعزع اتصالـــهم المستمر مع الله الحاضر دائماً في عقلهم وفي قلبهم

إنّ حالة النفس هذه هي ثمرة جهـــاد طويل الأمد، ويقظة مستمرة، وغصبٍ دائمٍ للنفس على الصلاة العقلية، وإذا كانت هذه الحالة ممكنة أيضاً لأولئك الذين يعيشون في العالم، وهم عبيدٌ مستترون لله، يجاهدون من أجلـــه بصمت وبدون ضجيج، فكم بالأحرى هي ممكنةٌ جداً وإلزاميةٌ للرهبان أيضاً

لذلك، فإني أتوجّه إليكِ أنتِ بالذات، كونكِ راهبة ومُلزَمة بممارسة الصلاة العقلية بلا انقطاع، وأشدِّد من جديد على معنى المسبحة التي أُعطيت لكِ مع الجبة، لا كشيءٍ مُلحَقٍ بالزيِّ الرهباني، بل كقائدٍ أولٍ للصلاة وكأداةٍ ماديّةٍ تذكّركِ بـــها

وكما قلتُ لكِ، لكي يقتني المرء الصلاة العقلية، يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ وجهادٍ مستمرٍ وغصبٍ دائمٍ للذات

ولا تنسي أنّ النجاح، في العالم، في أي أمرٍ صالحٍ في مجالات التربية والفن، لا يتحقّق بدون جهاد وتمرين مستمرَّين، إلى أن يحصل المرء على الراحة والمعرفة الكاملة

فإذا لم نقتنِ هذه الصلاة، أو على الأقل إذا لم نجاهد بشدةٍ من أجلها، "فإننا سنعطي جواباً عن ذلك في يوم الدينونة" (متى١٢:٣٦)

فلنبدأ إذاً شيئاً فشيئاً، ونُعَوِّد قلوبنا على سلام يسوع الحلو القائـــم، لأنـــه هـــو سيد السلام، دون أن نعتمد على قوانـــا الصغيرة والفقيرة، بـــل أن نضع ثقتنا في نعمة الله الكلّية القوة وفي معونته

"حيث يكون كنـــزكم هناك يكون قلبكم" (متى٦:٢١)، هكذا يقول الرب

إذاً، عندما نودع كلَّ ثروتنا، أي كلَّ ما نكرِّمه ونحبه، في يدي الرب، عندئذٍ وبدون شك، هو نفسه سيملأ قلبنا وفكرنا وكلَّ كياننا الروحي بحضوره البهيج

وإنَّ وصية الرسول حول الصلاة بلا انقطاع، لا ينبغي أن تبدو لنا رهيبةً وصعبة، بل ينبغي أن تكون تلبيةً لحاجات نفوسنا، وتكميلاً لشوقها إلى الوجود الدائم مع الله والارتباط به بدون انقطاع

ينبغي أن تكون الصلاة العقلية بمثابة الثروة الجزيلة القيمة لدينا، وبمثابة ينبوعٍ للذّاتنا الروحية،وفخرٍ لقلبنا

فعندما يدعو القلب اسم يسوع المسيح في الصلاة العقلية، يأتي

المسيح نفسه كما يقول الرسول: "إنّ الكلمة قريبةٌ منك في فيك وفي قلبك" (رو١٠:٨)، أي أن كلمة صلاتك الموجَّهة نحو الله هي بقربكِ، والله نفسه الذي تدعوه هو بقربكِ. كما يقول الرب: "ها أنذا على الباب (قلبك) واقفٌ أقرع، فإن فَتَح لي أحدٌ أدخل إليه وأتعشّى معه وهو معي" (رؤ٣:٢٠)

إذاً، أترين محبة الربِّ لنا إنه ينتظر أن يسكن في قلوبنا، يكفي ألاّ نرفضه وأن نرغب في قبوله

ويقول الكتاب في مكانٍ آخر: "إنّي سأسكن فيهم وأسير فيما بينهم (أي سأكون معهم أينما ذهبوا)، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً" (٢كو٦:١٦) و (لاويين٢٦:١٢)

"ياما أشرف ياما أحبَّ ياما ألذّ نغمتك" (قانون الفصح)

فمبارك هو إذاً مَنْ يسمع صوتك ويفتح لك باب قلبه

فكّري أيتها الأخت في هذا الكلام: هل الربُّ الفائق المجد محتاجٌ لقلبنا الدنس، المجروحِ بكلِّ نوعٍ من أنواع الخطايا، وهو نبع كلِّ الصالحات، والنور والنقاء والقداسة؟ طبعاً لا! ومع ذلك فهو لا يحتقره بل هو مستعدٌ لزيارته في كلِّ لحظة، يكفي أن نريد نحن

"ها أنذا واقفٌ على الباب أقرع" (رؤ٣:٢٠)،

"وأنا معكم في كلِّ حين" (مز٧٢:٢٣) و"تدعوني في يوم حزنك فأنجّيك" (مز٤٩:١٥)، هذا ما يقوله مسيحنا. ولكن كما كتبتُ لكِ سابقاً، يترتّب على ذلك أن يكون التمرُّن على الصلاة العقلية الداخلية التي بلا انقطاع، أَحَبَّ عملٍ لدى الرهبان، وإضافةً إلى ذلك، فإنّ هذه الصلاة ممكنةٌ وسهلة، يُمكن ممارستها أثناء القيام بأي عملٍ يدوي أو انشغال آخر: عندما نأكل، عندما نشرب، عندما نمشي وعندما نقوم بأعمالنا العامة، دائماً وفي كل لحظة، ليلاً ونهاراً، يكفي أن يكون قلبنا وذهننا يقظَين في "العمل الداخلي"

ولقد تذوَّق الآباء المستنيرون بالله حلاوة هذه الصلاة العقلية، صلاة يسوع، واختبروا قوتها، فكتبوا عنها الكثير

فيقول أبٌ روحاني: "باسم يسوع أو بالتفكير المستمر بشخصه، تُخلَق قوةٌ تطرد الأهواء وتعطّل الأفعال الشيطانية، وتملأ القلب من الهدوء السماوي والسعادة"

ويقول آخر أيضاً: "إضرب التجارب الشيطانية باسم يسوع، لأنه لا يوجد اسم أقوى منه على الأرض"

ويقول ثالث: "عندما تأكل أو تشرب، أَخرج من فمك اسم يسوع مع الطعام والشراب، وهو سيُقدِّس طعامك

ويحلّيه، كما سيحلّي أيضاً قلبك"

إذاً، فعندما تأكلين، عليكِ أن تفكّري بلذّة الطعام الروحي. وعندما تشربين، عليكِ أن تفكّري باللذة والقوة المحيية التي لماء الحياة الذي يَعِدُ به يسوع، ويعطيه للذين يؤمنون بكلامه ويذكرونه "كلُّ مَنْ يشرب من هذا الماء (الأرضي) يعطش أيضاً، أمّا الذي يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلا يعطش إلى الأبد" (يو٤:١٣-١٤)

"كلُّ مَنْ يعطش فليأتِ إليَّ ويشرب" (يو٧:٣٧). فقولي إذاً أنتِ أيضاً في ذهنكِ للربِّ: "أعطني هذا المـــاء لكي لا أعطش" (يو٤:١٥). "يا يسوع، أيها النبع الذي لا ينضب، يا خبز الحياة ونبع المعرفة، ثبّتني وأحييني" (من قانون المديح للربِّ لدى الروس)، وقولي أيضاً أيَّ شيءٍ آخر مناسب تجدينه في الكتاب المقدّس وكتب الخدم الكنسية

وعندما تمشين، وأينما ذهبتِ، فكّري بالطريق المؤدية إلى الموطن السماوي، المفتوحة أمامنا جميعاً، وتذكّري ذلك الزمان الذي تجسَّـــد فيه الربّ، ومشى على هذه الأرض وعلّم قائلاً: "أنا هو الطريق، لا أحدٌ يأتي إلى الآب إلا بي" (يو١٤:٦)، "أنا هو باب الخراف" (يو١٠:٧)، و"هلموا إليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (متى١١:٢٨)

إستجيبـــي لتلك الدعوة الكلية الصلاح، دعوة الربِّ، وتحادثي معه بأقوالٍ ملائمةٍ مأخوذة من الكتاب المقدّس تناسب حالتكِ الروحية، أو بأقوالكِ الخاصة التي تخرج من قلبك، "أرشدني يا ربُّ في طريقك فأسلك في حقّك" (مز٨٥:١١) أو "ثبّت خطواتي في قولك (مز١١٨:١٣٣)، أو "روحك الصالح يَهديني في أرضٍ مستقيمة" (مز١٤٢:١٠). هكذا سيعتاد قلبكِ شيئاً فشيئاً على التكلُّم مع الربِّ بأحاديثَ شديدة العذوبة، تـــهب النفس ســـلاماً لا يقارن مع أيِّ شيءٍ آخر، سلاماً غيرَ مُدرَك لدى الذهن البشري، يفهمه ويشعر به القلب فقط بنعمة الله التي تفتقده أثناء الصلاة

يقول القديس اسحق السوري، إنه بواسطة الصلاة بلا انقطاع "يأتي الروح القدس ليكشف السماويات، ويسكن الله في الإنسان المصلّي، ويضاعف فيه ثمر الروح" (المقالة ١٥). وينادي القديس يوحنا السلّمي: "الصلاة هي معاينة الله في هذا العالم، والرباط الذهبي الذي يربط السماء بالأرض والخالق بالمخلوق، إنّها حـــديث المجبول مع جابله بدالةٍ، واللجوء الخاشع للنفس أمام الله، التي تنسى كلَّ شيءٍ من أجله. الصلاة هي تلاشي النفس المبارَك أمام الروح القدس، الذي يفعل كلَّ شيء، هي التمتُّع بعذوبة الغبطة، وهي سكنى الثالوث الأقدس في القلب"

أرأيتِ بأيّة مدائحَ يُشاد بالصلاة لدى الآباء المتوشّحين بالله، أعمدة الرهبنة، الذين جاهدوا بقساوة في ممارستها، فذاقوا ثمارها بخبرتهم الخاصة؟ إنهم يشبّهونها بشجرة الحياة التي تقوم ثمارها بتغذية النفس فلا تموت من بعد، لأنّه كيف يمكنها أن تموت إذا كانت تحوي في داخلها ينبوع الحياة وعدم الموت؟

آه! فليؤهّلنا الرب نحن أيضاً لكي نتذوّق ثمار شجرة الفردوس تلك

الرسالة الرابعة عشرة

حول السيامة الرهبانية والإسكيم الكبير

يا بني أعطني قلبك

(أمثال٢٣:٢٦)

ها قد أتت الساعة التي يتحقّق فيها هدفكِ الذي من أجله أتيتِ إلى الدير، تلك الساعة التي تصيرين فيها عروساً للمسيح، الختن الأبدي لنفوسنا. وها أنتِ الآن تتهيأين لسيامتكِ الرهبانية

كم هي عظيمةٌ رحمة الله! المجد لتدبيره الفائق الصلاح، المجد والشكر لعظمته. إنه يدعونا جميعاً إلى التوبة، ويرشد كلّ واحدٍ منّا إلى الطريق التي ينبغي أن يسلكها من أجل خلاصه

إنكِ تطلبين مني الآن، أن أكتب لكِ عن هذه المرحلة العظيمة من حياتكِ، وأن أنصحكِ كيف تدخلين إلى الجهاد وما الذي ينتظركِ

ولكن، ماذا أستطيع أن أقول لكِ، أكثر مما سبق وكتبهُ آباؤنا القديسون بكلّ وضوحٍ وتفصيل، في كتاباتهم النسكية،

والتي صار محتواها معلوماً لديك؟ وإنّي أنصحكِ أن تقرأيها باستمرار وبانتباه شديد. فهذه الكتب، هي كنزٌ روحيٌّ، يستطيع المرء أن ينهل منه ما يحتاجه في كلِّ مرّة

إن "السيامة الرهبانية"، أي الدخول في المصف الملائكي، هي "عملٌ صالحٌ" تتّحد به قوةٌ عظيمةٌ وسريةٌ يختص بها الملائكة، وذلك لكي يصير الإنسان على صورة الملاك في حياته الداخلية. فالملائكة عديمة الأجساد بطبيعتها، ولا يستطيع ذوو الأجساد أن يشبهوها

أما السيامة الرهبانية، فهي بمثابة معمودية ثانية، وفيها إعادة ولادةٍ للراهبة وتجديد لها. وكتعبير عن هذه الولادة الجديدة، تخلع عنها، وإلى الأبد، الثياب العالمية التي ترمز إلى الإنسان القديم، وتتقدّم حافية القدمين، مرتدية ثوباً واحداً فقط من أجل الحشمة، وتقتبل أمام الإنجيل المقدّس، كما من يدي الله نفسه، لباساً جديداً في المسيح يسوع

إنّه لأمرٌ سماويٌّ ومشهدٌ مؤثّرٌ! فمثلما كانت وقتاً ما "أمة الرب" ماثلةً أمام قدس الأقداس، هكذا أنتِ الآن بتولٌ مقادةٌ باحتفالٍ أمام الباب الملوكي، إلى مذبح الربِّ، وسوف تعترفين خلال هذا الإحتفال، وبشكل رسمي وعلى مسمعٍ من جميع الحاضرين، أنكِ

"بإرادتكِ الحرَّة تُعرضين عن العالم وعن كلِّ ما في العالم"، وأنكِ "تشيحين بنظركِ عن الباطل"، لأنَّ كلَّ ما في العالم "نفاية من أجل المسيح" (فيليبي٣:٨)

مبارَكةٌ أنتِ أيتها الأخت، وممدوحٌ هو تصميمكِ وإرادتكِ، ليس من أجل ما ستَعدين به في السيامة، بل من أجل ما ستحقّقينه إذا ما أتَمْتِ هذه الأقوال. فإنكِ من أجل قراركِ هذا وإرادتكِ، أفعمتِ السماء والأرض فرحاً، وأبهجتِ الناس الذين يهتمون بخلاصكِ، وفرَّحتِ الملائكة، لأنّه "يصير فرحٌ في السماء من أجل خاطئٍ واحدٍ يتوب" (لو١٩:٧). وإنّكِ على الأخص قد فرَّحتِ الربَّ نفسه الذي يدعو جميع المحمَّلين بالاهتمامات العالمية إلى الراحة السماوية. "هلموا إليَّ يا جميع المُتعَبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (متى١١:٢٨-٢٩)

فأنتِ قد لبَّيتِ دعوته، وجئتِ إليه، وجلبتِ معكِ هداياكِ وذبائحكِ. الهدايا هي حياة البتولية والطهارة، أمّا الذبائح فهي القلب الممتلئ بالمحبة، والمتحرِّر من الأهواء الأرضية والجسدية، وهذا هو ما ينتظره الرب تماماً ، حيث يقول: "يا بنيَّ أعطني قلبك" (أمثال٢٣:٢٦)

وعندما سيحكم بأنَّ ذبيحتكِ صادقةٌ، وليست ذاتَ وجهين،

فإنّه سيقبلها وسيتّحد بنفسكِ. وهذا لن يتمَّ إلا إذا كان قلبكِ غير منقسمٍ، ملتصقاً به وحده وبشكلٍ كاملٍ، بصدقٍ وعفوية. أما إذا لم يكن الأمر كذلك، فهو سيعرض عن ذبيحتكِ، كغير مستحقةٍ لقداسته وعظمته

إنّ ابنَي آدم كليهما قد قدَّما الذبيحة لله، وكانا أخوَين، وكانت لهما إرادةٌ واحدة، وقاما بعملٍ واحدٍ، ولكنَّ الله قَبِلَ ذبيحة هابيل، وأعرض عن ذبيحة قايين (تك٤:٤-٥)

ولكن لماذا يا تُرى؟ لأنَّ هابيل قدَّم ذبائح ذات نفسٍ، بينما قايين قدَّم ذبائح مادية لا نفس فيها. وكذلك فإنَّ هابيل قدَّم أفضل ما عنده، بينما قايين قدَّم أسوأ ما عنده

وهذا ما يحدث مع الرهبان. جميعهم يقدِّمون لله حياتهم الرهبانية كذبيحة، ولكن الله لا يقبل هذه الذبيحة من الجميع، "فالله روحٌ"، ولا يكون الإنسان أهلاً لخدمته إلا "بالروح والحق" (يو٤:٢٣) فقط. فذبيحة خدمتنا لله تكون غير كافيةٍ وغير مقبولةٍ، إذا اقتصرت فقط على تركٍ خارجي للعالم، وممارساتٍ نسكيةٍ خارجيةٍ ليس لها روح الحياة، مثل قرابين قايين المائتة

فجميع ممارساتنا النسكية: الأصوام، الحرمانات، والجهادات، إذا ما تمّت بدون تطهيرٍ سابقٍ للقلوب، وبدون جهاد النفس والذهن

للاقتراب من الله، وإذا ما كانت غير كاملةٍ وبدون نفسٍ، فهي لن تكون غير ممدوحة وحسب، بل سيُعرض الله عنها أيضاً

ونستنتج من ذلك، أنّه ماذا ينفعنا تركنا للعالم إذا لم نطرد من قلوبنا أولاً التعلُّق بالعالم وتذكُّره؟ فلقد حبسنا أنفسنا ضمن جدران الدير، ولم نعد نستطع رؤية العالم بعيوننا الطبيعية لأننا قد اختبأنا

ولكن الروح لا ينضبط وراء الجدران، فهو حرٌّ دوماً، يدور في مختلف أرجاء العالم، حيث تنتشر الفخاخ فيسقط فيها، ويسبب الهلاك لبيت النفس

هذا هو بالضبط ضلال النفس، الذي يتكلّم عنه النبي. فلقد أغلقنا على أنفسنا في الدير، ولكننا من ثقوب الأبواب ننظر إلى هذا العالم الذي احتقرناه، وهكذا نتشبَّه بـ"الكلب الذي يعود إلى قيئه" (أمثال٢٦:١١) و(٢بط٢:٢٢)

نحن نصوم عن الأطعمة، ولكنَّ نفوسنا وأذهاننا تتذوَّق ثماراً محرَّمةً بأساليب متعددة

نسهر، ولكنّ ذهننا مُحمَّل باهتمامات أرضية

نصلّي ونرتّل، ولكنّ أفكارنا تنطلق في كافة الاتجاهات

جئنا إلى ينبوع المحبة، ولكنّ قلوبنا مفعمة باستمرار "بعزم يهوذا"، الذي بقبلةٍ واحدةٍ، كعربونٍ للمحبة، أسلم ربَّه وسيده، نبع النور والحياة، أسلمه وهو الذي كان قد جاء إليه مسبقاً وقتاً ما، طالباً بالضبط أن يصير تابعاً وتلميذاً له

إنّ الربّ يقول لنا نحن أيضاً، كما قال للإسرائيليين القدماء: "مَنْ طلب منكم أن تقدِّموا هذا...نفسي تكره صومكم... إنزعوا الخبث من نفوسكم وعندئذٍ أسمعكم" (أشعياء١:١٠-١٦)

إنّ خباثة القلب لدى الراهبة، تتساوى مع خيانة ختنها السماوي، الذي وَعَدَتْه عند تقديم نذرها الرهباني، أن تخدمه دوماً، وها هي تتهرَّب من إتمام مشيئته

فالعروس في نشيد الأنشاد، والتي ترمز إلى النفس عروس المسيح، يكون ذهنها وقلبها في عريسها ليلَ نهار (نشيد٣:١-٤)، لأنها منذورةٌ له بالكلية، وقد أحبَّته "مِن كلّ قلبها وكلّ نفسها وكلّ ذهنها"، كما يطلب الربُّ منَّا أن نفعل نحن أيضاً (متى٢٢:٣٧)

"وجدتُ مَنْ تحبُّه نفسي فأمسكتُه و لم أرخِه حتّى أدخلته بيت أميّ" (نشيد٣:٤)

وأنتِ يا أختي، عليكِ أن تصبري، وألاّ تتركي عريسكِ الأبدي والمحبوب منكِ يذهب بعيداً عنكِ، إلى أن تأتي به إلى

بيت نفسكِ، وإلى أن تشعري أنّه يسكن فيكِ بثباتٍ وبلا انفصال، ويتكلّم معكِ بالروح في الصلاة الذهنية

عليكِ أن تكوني في يقظةٍ دائمة، كي لا يتجذّر في قلبكِ أيُّ شيءٍ مما يُهين حضوره المقدّس. وعندما سيرى غيرتكِ وإيمانكِ، سيُجدِّد حياتكِ ويملأ كلَّ نفسكِ، وسيصير معكِ "روحاً واحداً" (١كو٦:١٧) بحسب قول الرسول، وسيُحبُّكِ، لأنّه كما يقول "أنا أحبُّ الّذين يحبُّوني والّذين يبكّرون إليَّ يجدونني" (أمثال٨:١٧). و"الّذي يحبُّني يحبُّه أبي، وأنا أحبُّه وأُظهِر له ذاتي" (يو١٤:٢١-٣٠)

فما هو أعظم من القداسة، وما هو أسمى من كرامة الاتحاد مع الربِّ بدون انقطاع، ومن أن تصيري عروساً له، عروساً لابن الله إلى الأبد، وارثةً لملكوته الأبدي؟

أيتها الأخت، إنّكِ في الحقيقة لمبارَكة، وثلاثاً مبارَكة، ولكن هذه البركة، كما سبق وقلتُ لكِ، ليست بسبب وعودكِ، بل نتيجة تطبيقك لهذه الوعود

ولكي تُحقّقي هدفكِ بشكلٍ أفضل، وبنتائج أسلم، عليكِ أن تتذكّري باستمرار وعودكِ التي نطَقتِ بها خلال خدمة النذر الرهباني، عندما سُئلتِ أمام الصليب والإنجيل،

وأمــام ابن الله الكلمة المصلوب الحاضر في كــلّ مكان

ولقد أكّدتِ للمسيح بـــهذه الأجوبة، إيمانكِ ومحبتَكِ له، مثل عروسٍ لعريسها يوم العرس

إفترضي أنّ الكاهن الذي قام بالخدمة والسيامة، لم يعرف الكلمة، الذي من أجله وقفتِ أمام الباب الملوكي بـــهذه الهيئة الغريبة، أي بلباسٍ واحـــدٍ وشعرٍ مسدولٍ، يرافقكِ جوقٌ من رفيقاتكِ في الجهاد، تحملن الشموع المُضاءة في أيديهم. إفترضي أنّه لم يعرف، وأراد أن يحصل منكِ على جوابٍ محدَّدٍ، وسألكِ: "ماذا تسترحمين أيتها الأخت أمام المذبح المقدّس، وأمام هذه الأخوية المقدّسة؟"، فتجيبين أنتِ على مسمعٍ من الجميع: "أحببتُ حياة النسك". وهو عندئذ يقول مادحاً رغبتكِ الصالحة: "إنّه لحسنٌ ومغبوطٌ مبتغاكِ، ولكن فقط إذا أتممته بالأعمال الصالحة مع التعب والألم"

ثم أخذ يعدِّد لكِ جميع الصعوبات، واحدةً فواحدة، بشكل أسئلة، لكي تستطيعي فهمها والإجابة على كلٍّ منها على حدى. فـــأعربتِ عن استعدادكِ لمواجهة كلّ هذه الصعوبات والحرمانات من أجل الربّ. وعندئذ قصَّ شعر رأسكِ، كدليلٍ على قطع كلّ ضعفٍ جسديٍّ وهوى أرضي، كنتِ قد تخليتِ أنتِ نفسكِ عنه

بإرادتكِ منذ تلك اللحظة، وهكذا ارتبطتِ مع العريس السماوي، مع المسيح. ثمّ يُذكّركِ الكاهن بقوله: "أُنظري أيتها الإبنة، ها قد أعطَيتِ السيد المسيح عهداً، وقد سجَّل الملائكـــة اعترافكِ هذا بحالٍ غير منظورٍ، وأنتِ مزمعةٌ أن تعطي جواباً عنه في الحضور الثاني لربّنا يسوع المسيح"

آه، لو كنّا نعود نحن الرهبان بأذهاننا، إلى ذلك اليوم، يوم نذرنا الرهباني، باستمرار. ولو كنّا نستطيع أن نأتي بأذهاننا إلى تلك الحالة المبارَكة، التي كانت عليها أنفسنا في ذلك اليوم، لكان عندها العالم بأكمله، وبكلّ ما فيه من ثروات، غريباً بالنسبة إلينا ولا فائدة منه، وعندئذٍ، نستطيع أن نصرخ مع الرسول: "من سيفصلنا عن محبَّة المسيح. أشدّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عريٌ أم خطر أم سيف، ...ولا خليقة أخرى تقدر أن تفصلنا عن مبَّة الله التي في المسيح يسوع ربّنا" (رو٨:٣٥-٣٩)

ينبغي أن يكون هذا التذكُّر لنذركِ دائماً أمام عينيكِ الروحيتين، في كلّ ظروف حياتكِ، وعندئذٍ ستتذوقين ملكوت الله وأنتِ مازلتِ بعد على الأرض، وستخلّصين نفسكِ

السيامة الرهبانية

لم تكن الأم الرئيسة تايسيّة ابنةً روحيةً للقديس يوحنا كرونستادت وحسب، ولكنها كانت أيضاً مساعدةً له في مجال تقوية وتوسيع الرهبنة النسائية في روسيا. ومن المعروف عن القديس يوحنا كرونستادت أنه أشاد الكثير من الكنائس والمدارس والمستشفيات

وفي صيف عام ١٨٩٩، وضعَ أساس الدير النسائي، ديرِ القديس يوحنا الذي من ليرا، وجَمَعَ فيه عدداً من المتقدّمات إلى الرهبنة لكي يبدأن الخدمة في الدير. وكان عددهن حـــوالي ثلاثين شابة، أرسلهن إلى دير القديس يوحنا المعمدان، ديـــر الأم تايسيّة لكي يتدرّبن فيه على الحياة الرهبانية

وبعد انقضاء فترة التدريب، منحتهن الأم تايسيّة الثياب الســـوداء يوم السبت العظيم، فصِرن راهباتٍ مبتدئات، وقالت لهن الكلمات التالية أمام "الإِبيتافيون":

أيتها الأخوات الحبيبات في المســـيح، لقد اجتمعنا في الكنيسة

أمام الإبيتافيون في هذه الساعة، لكي تأخذن وترتدين من يديَّ اللباس الرهباني، ذاك الذي يرتديه فقط مَنْ يسكن في الدير، وقد تمَّ ذلك بحسب رغبة مَنْ أرشدكن إلى الرهبنة، الأب يوحنا كرونستادت. فاقبلن إذاً الثوب، لا من يديَّ الأثيمتَين، بل من يديِّ الربِّ نفسه المدفون والموجود هنا الآن

ولكن قبل أن أُلبسكنَّ إياه، أريد أن أسألكن: هل تعرفن يا ترى وهل تفهمن أهمية هذا الأمر؟ فهو ليس مجرد تغييرٍ عاديٍّ في اللباس، وأنتنّ لا تلبسنه في زاويةٍ مخفيَّةٍ في الغرفة، بل داخل الكنيسة، أمام الله وأمام كلِّ محفل القديسين الحاضرين في الأيقونات المقدّسة، أولئك الشاهدون الصامتون، الذين ينظرون بوقارٍ إلى قبر المسيح ربِّنا الذي لا يموت الحاضر أمامنا، والذين ينظرون في الوقت نفسه إليكن أيضاً ببهجةٍ، أنتن المتهيآت لترك كلِّ شيءٍ، العالم وتجاربه، والتكرُّس بكامل حياتكن للمصلوب المدفون

إنَّ إعطاء الثوب للمبتدئة بحسب الرؤية الرهبانية، لَهوَ دليلٌ منظورٌ على رفضها العالم، وانتمائها إلى مصفِّ الراهبات

إنّه وعدُ النفس للختن السماوي الذي تحبُّه وتطلبه. وكما أنّ العريس والعروس يتبادلان الخواتم دلالةً على الاتفاق بينهما، هكذا يُمنح هذا الثوب كدليلٍ على ارتباطكن مع

المسيح، إلى أن يحين وقت تقديم النذور

أيتها الأخوات، إنكن في الحقيقة لمبارَكاتٍ ومغبوطات، ليس فقط من أجل ارتباطكن بالختن السماوي، بل لأنكن إذا حافظتن على البتولية ونقاوة النفس، وأصبحتن أهلاً له، فسوف تتمكنَّ حينئذٍ من الدخول إلى خدره، حيث تسكن النفوس الحكيمات، وحيث يكون "أجركم عظيمٌ في السموات" (متى٥:١٢)

ولكن إذا "تراجعتن" (متى٢٤:١٨) و(لو١٧:٣١)، وضَعُفَ إيمانكن بعريسكن، فحينئذٍ احكمن بأنفسكن، ما هو الجواب الذي ستقدمنه؟ علماً بأنَّ مَنْ تخون زوجها سوف يحاكمها الله والناس

عليكن قبل كلِّ شيءٍ أن تتسلّحن بالصبر، وستكون لديكن الفرصة للتدرُّب عليه في كلِّ خطوةٍ، لأنَّ "الأعمال الصالحة تُكتسَب بالأتعاب وتتحقق بالآلام" (خدمة السيامة)

أُنظرن إلى الربِّ المضطجع داخل القبر، عريس نفوسكن، ألم يحتمل؟ لقد كان مُضطَهداً كلَّ أيام حياته على الأرض بسبب شرور وحسد أعدائه

ينبغي إذاً أن تتحمَّلن أنتن أيضاً. هو لم يكن لديه "أين يُسنِدْ رأسه" (متى٨:٢٠) و(لو٩:٥٨)، وأنتن ينبغي أن تعتبرن أنفسكن غريبات على هذه الأرض، وزائرات مبحرات نحو "أورشليم العلوية".

ولا تطلبن الراحـــة في مسكنكن المؤقت هـــذا، بل عشن بفكرٍ واحد، إلا وهو "أنَّ سيرتنا نحن هي في السَّموات" (فيليبـــي٣:٢٠)

إنَّ عدوَّنا المشترك "الشيطان" لن يتوقف أبداً عن محاربتكن، وذلك بدفعكن إلى تذكُّر حياتكن العالميـــة، والحريـــة التي كانت لكنَّ في العالم، لأنَّه بإرادتكن قيَّدتن هذه الحرية بقيد الخضوع الرهباني. ولكن اطردن هجماته بعيداً، واجمعن قواكن، ولا تغب "آلام مخلصنا يسوع المسيح" عن فكركن، وقُلن له ذهنياً: "يا ختني إني أشتاق إليك وأجاهد طالبةً إياكَ وأُصلب وأُدفَن معك... لكي أحيا بك"

إنتبهن ألاّ تُرجِعن دعوتكن الرهبانية إلى أنفسكن، أي إلى استحقاقكن ومَقدراتكن الروحية، بل تذكّرن دوماً " الربَّ يُخرِج الثَّمين من المرذول" (أرميا١٥:١٩)، و"لم آتِ لأدعو أبراراً بل خطأةً إلى التوبة" (مت٩:١٣)، فهو يعرف المستقبل كما نعرف نحن الحاضر، وربما رأى أنَّه لو بقيتنَّ في العـــالم ضمن الخطيئة، لكنتنّ قد خسرتن أنفسكن، ولهذا ولعظم رحمته، جذبكن بعيداً عن العالم وعن تجاربه، كونه الذي "لا يريد هلاك أحد" (٢بط٣:٩)

تذكّـــرن دائماً كلمات الربِّ إلى تلاميذه الإلهيين: "ليس أنتم الذين اخترتموني بل أنا اخترتكـــم" (يو١٥:١٦)، و"اسلكوا كما

يحقُّ للدعـــوة التي دعيتم بـــها" (أفسس٤:١)

إذاً فلننتبه الآن إلى أمرٍ آخر: لقد قرَّرتُنّ اتِّباع الحياة الرهبانية، وفي روسيا الأرثوذكسية يوجد الكثير من الأديـــار القديمة والجديدة، وأنتن لم تذهبن إلى أيٍّ منها، بل قررتن الذهاب إلى دير مازال في طور التأسيس والبناء، فأنتن إذاً مختاراتٌ من قبل العناية الإلهية، لتصبحن أول المجاهدات وأول مَنْ يسكن ويصلّي فيه. وبالتالي، فالدور الموكل إليكنَّ هو الدور الأصعب، لأنَّه معروفٌ أنَّه من الصعب جداً أن يبدأ المرء بأيِّ عملٍ كان، فكم بالأحرى إذا كان هذا العمل هاماً وسامياً، حيث يترتّب عليه أن يبدأ هو به، بدل أن يتَّبع الطرق التي سبق آخرون فاتَّبعوها وهيَّأوا لها

إلاّ أنّ هذا الأمر يجب ألاّ يسبب الخوف لكُنَّ كما ويجب ألا تخافنَّ كونكن سوف تعشن في مكانٍ بعيدٍ وباردٍ جداً، لأنَّه لا شيء ولا أحد يمكنه أن يخيفكن هناك، والسبب كما أظن، هو أنّه بمقدار ما أن المكان هو باردٌ في الظاهر والخارج، فبهذا المقدار هو حارٌ وقريبٌ في الداخل، لأنَّه مكان ولادة إنسان الله المختار، الذي يؤسِّس هذا الدير من أجل فائدة واستنارة هذه المنطقة روحياً

ومما لاشكَّ فيه أنَّ قيام هذا الدير هو مشيئةٌ إلهيةٌ، لأنَّ الذي يؤسّسه قريبٌ جداً من الله، ولا يبتعد عنه أبداً لا في القلب ولا في

الذهن.فالربُّ نفسه أناره لإشادة الدير، كما أرشده لكي يجمعكن وينطلق معكن، لقد عمل مشيئة الله

وعندما تتوفّر الإرادة والدليل من العلاء فأيُّ عملٍ يتمُّ سيكون سهلاً وناجحاً

لذلك فأنتنَّ أيضاً أيتها الأخوات. كرِّسن ذواتكن لإرادة الله، الذي يدعوكن بواسطة أبيكن الروحي. هبن أنفسكن بكليتها إلى إرشاداته وعنايته التي تفيد في خلاصكنّ، أطعن أباكن الروحي، وبالتالي من خلال طاعته تكنَّ قد أطعتنَّ أباكن السماوي الذي اختاركن وأخذكن من العالم، وثقن بكلام الرسول "الّذين دعاهم فهؤلاء برَّرهم أيضاً" (رو٨: ٣٠)

مغبوطٌ هو ديرنا، لأنَّه بطريقة ما صار مهداً لحياتكن الرهبانية، وسعيدةٌ أيضاً أنا الخاطئة، لأنني أُهِّلتُ أن أكون أول أمٍّ روحية لكنَّ وأول مرشدةٍ في عملكن العظيم هذا، ضمن خضمِّ الحياة الصعبة الرهيبة

إذاً، خُذنَ من يدي، بل بالحريّ من يديِّ الربِّ نفسه، الراقد هنا أمامنا في الإبيتافيون، لباس الوعد الذي تقدمنه له، الجبّة

"اليوم نعمة الروح القدس جمعتنا وكلُّنا نرفع صليبنا"

(من غروب الشعانين). فلنذهب مع حاملي السعف لنستقبل الربَّ القائم، وليتنا نسمع نحن أيضاً صوته المبارك "إفرحوا"

آمين

مطابع ألف باء - الأديب
دمشق

منشورات التراث الآبائي

يسوع المسيح الغالب

١٩٩١

٠١٠-١١٤٤